الجمهورية اليمنية

بسم الله الرحمن الرحيم

العصيان

وكيف يتعامل المسلم المبتلى به

إعداد/ محمد نعمان محمد علي البعداني

غفر الله له ولوالديه وزوج ووالديهم وإخوانه وذريتهم والمسلمين جميعاً آمين.

١٤٣٢هـ /٢٠١١م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى سواء السبيل، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء:١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد فلقد فشت وانتشرت الذنوب والمعاصي وعمت حتى أصبحت شيئا مألوفاً مع أنها من المهلكات، فعن أنس ﷺ قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات، قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات»[١]، فنرى الكبرياء والجبروت والعظمة والقهر والعلو والظلم والاستبداد للخلق واستعبادهم، والقول على الله بلا علم في خلقه وأمره، وهذه ما يسميها علماء السلوك بالصفات الملكية، والتي يقصد بها أن يتعاطَ العبد ما لا يصلح له من صفات الربوبية، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله ﷻ ربوبيته وملكه وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله ﷻ ولا ينفع معه عمل، قال رسول الله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى، فَمَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِى النَّارِ"[٢]، ونرى الحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر وتطفيف المكيال والميزان والغيبة والنميمة، والأمر بمعاصي الله وتحسينها والنهي عن طاعة الله وتهجينها، والابتداع في دينه والدعوة إلى البدع والضلال، وهذه الذنوب الشيطانية؛ للتشبه فيها بالشيطان، ونرى العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين، والجرأة على الظلم والعدوان، وهذه الذنوب السبعية، ونرى الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك، وهذه الذنوب البهيمية؛ لأن أصحابها جعلوا من أنفسهم كالبهائم[٣].

١- رواه البخاري، ٢٣٨١/٥ برقم: ٦١٢٧.

٢- رواه أبو داود، ٤٥٦/٢ برقم: ٤٠٩٠، وابن ماجه، ١٣٩٧/٢ بر قم: ٤١٤٧،قال الألباني: صحيح لغيره، صحيح الترغيب والترهيب، ٣/ ٦٤ برقم: ٢٨٩٨.

٣- الجواب الكافي، ٨٦/١، بتصرف.

فإذا ابتلي المسلم بارتكاب المعاصي أياً كان نوعها، فإن عليه القيام بعدة خطوات أذكرها في هذا البحث الذي يتكون من مبحثين:

المبحث الأول: العصيان وأضراره، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العصيان.

المطلب الثاني: أصول الذنوب.

المطلب الثالث: أقسام المعاصي والعصاة.

المطلب الرابع: أحوال الناس واستدراج أهل المعاصي.

المطلب الخامس: أضرار الذنوب والمعاصي وعواقبها.

المطلب السادس: مكفرات الذنوب.

المبحث الثاني: الخلاص والنقاء، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كيف يتعامل المسلم المبتلى بالعصيان.

المطلب الثاني: برنامج عملي للتخلص من المعاصي.

المطلب الثالث: وقفات مع التغيير.

المبحث الأول: العصيان وأضراره، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العصيان.

المطلب الثاني: أصول الذنوب.

المطلب الثالث: أقسام المعاصي والعصاة.

المطلب الرابع: أحوال الناس واستدراج أهل المعاصي.

المطلب الخامس: أضرار الذنوب والمعاصي وعواقبها.

المطلب السادس: مكفرات الذنوب.

المطلب الأول: تعريف العصيان

العصيان لغة:

العصيان هو اسم من عصى يعصي عصياً وعصياناً ومعصية.

قال ابن فارس: «العين والصاد والحرف المعتل أصلان صحيحان، إلا أنهما متباينان؛ يدل أحدهما على التجمع، ويدل الآخر على الفرقة، فالأول العصا سميت بذلك لاشتمال يد ممسكها عليها... والأصل الآخر العصيان والمعصية، يقال: عصى وهو عاص، والجمع عصاة وعاصون»[1].

وجعل الراغب العصيان من العصا فقال: «وعصى عصياناً إذا خرج عن الطاعة، وأصله أن يتمنع بعصاه... ويقال فيمن فارق الجماعة: فلان شق العصا»[2].

والعصيان المخالفة: قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿**لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ**﴾[التحريم:٩] «أي: لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان»[3]، وقيل: العصيان ترك الانقياد[4].

والعصيان خلاف الطاعة، يقال: عصى العبد ربه إذا خالف أمره، وعصى فلان أميره يعصيه عَصْياً وعِصياناً ومعصيةً: إذا لم يطعه فهو عاص وعصي، وعاصاه أيضاً مثل عصاه، ويقال للجماعة إذا خرجت عن طاعة السلطان قد استعصت عليه، والعاصي: الفصيل إذا لم يتبع أمه[5].

العصيان اصطلاحاً:

هو ترك الانقياد لما أمر الله به أو نهى عنه، وقيل: هو الامتناع عن الانقياد لما أمر الله به أو نهى عنه، وقيل: هو المخالفة للأمر التكليفي خاصة، وقيل: هو ترك المأمورات وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب الله تعالى وفرض في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوال والأعمال الظاهرة أو الباطنة[6]، قال ابن كثير: «والعصيان: وهي جميع المعاصي»[7].

والمعاصي جمع معصية وهي: «مخالفة الأمر الشرعي، فمن خالف أمر الله الذي أرسل فيه رسله، وأنزل به كتبه فقد عصاه»[8]، وقال البزدوي: المعصية اسم لفعل حرام مقصود بعينه[9].

١- مقاييس اللغة، ٤/٣٣٤، ٣٣٥

٢- المفردات في غريب القرآن، ص٣٣٧.

٣- تفسير القرطبي، ١٨/١٩٦.

٤- أنيس الفقهاء، ص١٦٤.

٥- لسان العرب، ١٥/٦٧.

٦- التعاريف للمناوي، ص٥١٦، وكتاب الكليات ص ٤١، ٦٥٦، وأنيس الفقهاء، ص١٦٤، وموسوعة نضرة النعيم، ١٠/ ٤٩٧٣.

٧- تفسير ابن كثير، ٤/٢١١.

٨- دقائق التفسير، ٢/٣٦٩.

٩- أصول البزدوي، ص٢٢٨.

المطلب الثاني: أصول الذنوب

ذكر الإمام الغزالي أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن مسارات الذنوب تنحصر في أربع صفات:

الصفة الأولى: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبر والفخر وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوباً.

الصفة الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد والبغي والحيل والخداع والمكر والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الصفة الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنا واللواطة والسرقة وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الصفة الرابعة: الصفات السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالقتل والضرب وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح: فبعضها في القلب، كالكفر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن.

ثم الذنوب منها ما يتعلق بحقوق الآدميين، ومنها ما يتعلق بحق الله تعالى على خلقه، فما يتعلق بحقوق العباد فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه فالعفو فيه أرجى وأقرب إلا أن يكون شركاً –والعياذ بالله– فذلك الذي لا يغفر[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[النساء:٤٨].

---

[1] – إحياء علوم الدين، ٤/ص١٦، وموسوعة نضرة النعيم: ١٠/ ٤٩٧٣، ٤٩٧٤.

المطلب الثالث: أقسام المعاصي والعصاة

أولاً: أقسام المعاصي

يمكن تقسيم المعاصي إلى عدة أقسام باعتبارات عدة على النحو التالي:

القسم الأول: **تقسيم المعاصي باعتبار ما يترتب عليها من عقوبة**

للعلماء في تقسيم المعاصي باعتبار ما يترتب عليها من عقوبة ثلاثة آراء:

الرأي الأول: المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر؛ للآتي:

لقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات:٧]، فقد جعل الله تعالى المعاصي رتباً ثلاثاً، وسمى بعض المعاصي فسوقاً دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢].

قال الإمام السعدي: «وهي الذنوب الصغار التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم العبد بها المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة»[١].

وفي الحديث: "الْكَبَائِرُ سَبْعٌ"[٢] وفي رواية "تِسْعٌ "[٣]، وفي الحديث أيضاً: "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"[٤]، فخص الكبائر ببعض الذنوب، ولو كانت الذنوب كلها كبائر لم يسغ ذلك.

ولأن ما عظمت مفسدته أحق باسم الكبيرة على أن قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء:٣١] صريح في انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

قال الغزالي: «لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عُرفا من مدارك الشرع»[٥]، وهذا الرأي رأي جمهور العلماء.

الرأي الثاني: أنكر جماعة من العلماء أن في الذنوب صغيرة، وقالوا: بل سائر المعاصي كبائر، منهم الشيخ أبو إسحاق الإسفرائيني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في الإرشاد، وابن القشيري

١- تفسير السعدي، ص٨٢١.

٢- الأدب المفرد، ٢٠٢/١ برقم: ٥٧٨، والمعجم الكبير، ٤٨/١٧ برقم: ١٠٢، والمعجم الأوسط، ٣٣/٦، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب، ١٧٧/٢ برقم: ١٨٤٨، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ"، أخرجه البخاري، ١٠١٧/٣ برقم: ٢٦١٥، ومسلم، ٩٢/١برقم: ٨٩.

٣- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ١٨٦/١٠ برقم: ٢٠٥٤١، وانظر: الجامع الصغير وزيادته، ٨٧٤/١ برقم: ٨٧٣٤.

٤- أخرجه مسلم، ٢٠٩/١ برقم: ٢٣٣.

٥- إعانة الطالبين، ٢٨١/٤.

في المرشد بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله تعالى عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكلها كبائر.

قال الزركشي: «لعل أصحاب هذا الوجه كرهوا تسمية معصية الله صغيرة إجلالاً لله وتعظيماً لأمره مع أنهم وافقوا في الجرح أنه لا يكون بمطلق المعصية»[1].

الرأي الثالث: قسم الحليمي المعاصي إلى ثلاثة أقسام: صغيرة، وكبيرة، وفاحشة، فقتل النفس بغير حق كبيرة، فإن قتل ذا رحم ففاحشة، فأما الخدشة والضربة مرة أو مرتين فصغيرة[2].

القسم الثاني: تقسيم المعاصي باعتبار ميل النفس إليها

قسم الإمام الماوردي المعاصي التي يمنع الشرع منها، واستقر التكليف عقلاً أو شرعاً بالنهي عنها إلى قسمين:

الأول: ما تكون النفوس داعية إليها، والشهوات باعثة عليها، كالسفاح وشرب الخمر، فقد زجر الله تعالى عنها لقوة الباعث عليها، وشدة الميل إليها بنوعين من الزجر:

أحدهما: حد عاجل يرتدع به الجريء.

والثاني: وعيد آجل يزدجر به التقي.

الثاني: ما تكون النفوس نافرة منها، والشهوات مصروفة عنها، كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السموم المتلفات، فاقتصر الله تعالى في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد؛ لأن النفوس مسعدة[3] في الزجر عنها، والشهوات مصروفة عن ركوب المحظور منها[4].

قال الهيتمي: «إن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى، وخشية انتقامه وسطوته، وحذر عقابه وغضبه وبطشه، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]»[5].

وقال رسول الله ﷺ: "إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ[6] السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ

١- البحر المحيط في أصول الفقه، ٣/٣٣٥.

٢- انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، ٣/٣٣٥.

٣- أي معانة؛ من أسعده الله أي وفقه فهو مسعد ومسعود، وأسعد فلاناً أعانه، انظر: المعجم الوسيط، ١/٤٣٠.

٤- أدب الدنيا والدين، ص١٥٢.

٥- الزواجر، ١/٢٧.

٦- بفتح الهمزة وشد الطاء: صاحت وأنت وصوتت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة وكثرة الساجدين فيها منهم، من الأطيط وهو صوت الرحل والإبل من حمل أثقالها، فيض القدير ، ١/٥٣٦.

لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ[١] تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ"[٢].

القسم الثالث: باعتبار أصلها

المعاصي باعتبار أصلها نوعان:

النوع الأول: ترك مأمور، والنوع الثاني: فعل محظور.

قال ابن القيم: «وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والأنس بهما»[٣].

القسم الرابع: باعتبار محلها

تنقسم المعاصي باعتبار محلها إلى قسمين:

الأول: قسم ظاهر على الجوارح، والثاني: قسم باطن في القلوب.

القسم الخامس: باعتبار متعلقها

تنقسم المعاصي باعتبار متعلقها إلى قسمين:

الأول: ما يتعلق بحق الله تعالى، والثاني: ما يتعلق بحق خلقه.

قال ابن القيم: «وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه لكن سمي حقاً للخلق؛ لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم»[٤].

القسم السادس: باعتبار ما يتعاطاه العبد ويتشبه به

تنقسم المعاصي باعتبار ما يتعاطاه العبد ويتشبه به إلى أربعة أقسام:

الأول: الذنوب الملكية، والمقصود بذلك أن يتعاطا العبد ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك، ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره وهو الرياء، وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله ﷻ ربوبيته وملكيته، وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

١- أي: الطرق وهي جمع صعد، تحفة الأحوذي ٤٩٦/٦.

٢- أخرجه الترمذي، ٥٥٦/٤ برقم: ٢٣١٢، وابن ماجه، ١٤٠٢/٢ برقم: ٤١٩٠، وأحمد، ١٧٣/٥ برقم: ٢١٥٥٥، قال الألباني: «حسن دون قوله: "والله لوددت... فإنه مدرج»، صحيح سنن ابن ماجة، ٤٠٧/٢ برقم: ٣٣٧٨.

٣- الجواب الكافي، ص٨٦.

٤- الجواب الكافي، ص٨٦.

الثاني: المعاصي الشيطانية، ويقصد بها ما يكون فاعلها متشبهاً فيها بالشيطان كالحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعة الله وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال، وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

الثالث: المعاصي السبعية، ويقصد بها ما يكون فاعلها متشبهاً فيها بالسباع، كالعدوان والغضب وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

الرابع: المعاصي البهيمية، ويقصد بها ما يكون فاعلها متشبهاً فيها بالبهائم، مثل الشرة والحرص علي قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى، والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك، وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية.

ثانياً: أقسام العصاة

العصاة على قسمين:

القسم الأول: من يرتكب المعاصي ويمتنع عن الطاعات، وهذه أخبث أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدين.

القسم الثاني: من يرتكب المعاصي ويفعل الطاعات، وهذا يستحق عذاب المجترئ؛ لأنه تورط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة[١].

فائدتان:

الفائدة الأولى: الفرق بين المبتدع والعاصي

قال الإمام الكفوي: «والعاصي: من يفعل محظوراً لا يرجو الثواب بفعله، بخلاف المبتدع فإنه يرجو به الثواب في الآخرة، والعاصي والفاسق في الشرع سواء»[٢].

الفائدة الثانية: الفرق بين المعصية والزلة

والفرق بين المعصية والزلة أن الفعل المحرم هو المقصود بعينه في المعصية بخلاف الزلة[٣]، يقول الكفوي: «والذنب والمعصية كلاهما اسم لفعل محرم يقع المرء عليه عن قصد فعل الحرام بخلاف الزلة»[٤]

١- انظر: موسوعة نضرة النعيم، ١٠/٤٩٧٣.

٢- كتاب الكليات،ص٤١.

٣- الموسوعة الفقهية الكويتية، ٣٨/٢٠٦.

٤- كتاب الكليات، ص٤٠.

المطلب الرابع: أحوال الناس واستدراج أهل المعاصي

أولاً: أحوال الناس في فعل الطاعات واجتناب المعاصي

قال الماوردي: «ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال:

فمنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات، ويكف عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين...

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات، ويقدم على ارتكاب المعاصي، وهي أخبث أحوال المكلفين، وشر صفات المتعبدين، فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما أمر به من طاعته، وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه، وقد قال ابن شبرمة: «عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار؟!».

ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات، ويقدم على ارتكاب المعاصي، فهذا يستحق عذاب المجترئ؛ لأنه تورط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة... قال بعض العلماء: «أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، و لم تزل الشبهة يقينه».

ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات، ويكف عن ارتكاب المعاصي، فهذا يستحق عقاب اللاهي عن دينه المنذر بقلة يقينه»[1].

قال الفقيه أبو الليث السمرقندي: «في كتاب الله دليل على أن ترك المعصية أفضل من أعمال الطاعة؛ لأن الله تعالى قد اشترط في الحسنة المجيء بها إلى الآخرة، وفي ترك الذنوب لم يشترط شيئا سوى الترك، وقال تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[النازعات: ٤٠-٤١]»[2].

ثانياً: استدراج أهل المعاصي بالنعم

قال الماوردي: «وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش، أو أدركوا أمنية من دنيا، كانت عليهم نعمة، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة»[3].

وروى عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم

١- أدب الدنيا والدين، ص ١٥٦-١٥٨.

٢- تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، ص ٢٩٢.

٣- أدب الدنيا والدين للماوردي، ١٥١/١٥٢.

مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤]"[1]، فالآية تدل أن ما يشاهد من تنعم العصاة إنما هو استدراج وموعدهم الهلاك في الدنيا، فإذا نعموا طوال أعمارهم وسلموا في الدنيا فالهلاك يوم القيامة، يومئذ يتنكر لهم رفيقهم الأكبر في الدنيا الذي كان يحضهم على المعاصي ويوسوس لهم: ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم:٢٢].

قال السعدي: «أي: ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ﴾ -الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم- مخاطباً لأهل النار ومتبرئاً منهم، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودخل أهل الجنة وأهل النار النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: هذه نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم فاستجبتم لي اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كان الحال بهذه الصورة ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله ولا تجب طاعتي ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ خالدين فيه أبدا، وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان، ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ويكفر بشركهم»[2]، ثم قال: «واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أن الشيطان ليس له سلطان وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[النحل:١٠٠]، فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أزا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٩٩]».

---

[1]- أخرجه أحمد في المسند، ٤/١٤٥ برقم: ١٧٣٤٩، انظر: السلسلة الصحيحة للألباني، ١/٧٧٣ رقم: ٤١٤.

[2]- تفسير السعدي، ص٤٢٤، ٤٢٥.

المطلب الخامس: أضرار الذنوب والمعاصي وعواقبها

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله ومنها:

١- حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفأ ذلك النور، فكم من شخص حرم العلم بسبب المعاصي -نستغفر الله ونتوب إليه- وكم من بلد حرم العلم والعلماء بسبب المعاصي، ولو لم يكفنا إلا أن الحجر الأسود نزل من السماء أبيض فسودته خطايا البشر لكفى.

لما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه، فقال له: «إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية»[١].

وقال الإمام الشافعي في ذلك:

شكوت إلى وكيع سوء حفظ ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي[٢]

٢- حرمان الرزق، فكما أن التقوى مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، قال الله ﷻ: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[الأعراف:٩٦]، وقال ﷻ: **﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾**[الجن:١٦].

وهذا الحرمان قد يكون بالكلية كما في حديث ثوبان ﷺ: **"إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"**[٣]، وقد يكون حرمان الرزق برفع البركة منه بدليل حديث حكيم بن حزام ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا -أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا- فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"**[٤]، فانظر إلى الصدق والطاعة كيف يباركان في البيع والرزق، بينما الكذب والغش والكتم للعيب مع العلم به كيف يمحق بركته.

٣- وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يرفعها ويزيلها أي لذة، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها، فلو لم يكن في ترك الذنوب إلا التخلص من هذه الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها.

١- الجواب الكافي ٣٤/١.

٢- ديوان الإمام الشافعي ٦١/١.

٣- أخرجه ابن ماجه، ١٣٣٤/٢ برقم: ٤٠٢٢، وأحمد في المسند، ٢٧٧/٥ برقم: ٢٢٤٤٠، وابن حبان، ١٥٣/٣ برقم: ٨٧٢، والحاكم في المستدرك، ٦٧٠/١ برقم: ١٨١٤، والطبراني في المعجم الكبير، ١٠٠/٢ برقم: ١٤٤٢، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه»، وضعفه الأرنؤوط والألباني، انظر: ضعيف سنن ابن ماجة، ٣٢٣/١ برقم: ٨٧٢.

٤- أخرجه البخاري، ٧٣٣/٢ برقم: ١٩٧٦، ومسلم، ١١٦٤/٣ برقم: ١٥٣٢

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب   فدعها إذا شئت واستأنس

٤- الوحشة التي يجدها العاصي بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً حتى من نفسه، قال بعض السلف: «إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي».

٥- تعسر الأمور على العاصي، فلا يتوجه لأمر إلا ويجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾[الطلاق:٤]، فكما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا، فمن عطل التقوى وعصى جعل الله له من أمره عسرا.

٦- ظلمة حقيقة يجدها العاصي في قلبه ويحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم، فإن للطاعة نورا وللمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج يمشي وحده في ظلمة الليل، وتزداد هذه الظلمة حتى تعلو الوجه ويصير أسودا يراه كل أحد.

٧- المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، فلا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته من قلبه وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة؛ فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه.

٨- حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن الطاعة لكان في ذلك كفاية من الحرمان.

٩- المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته، فكما أن البر يزيد في العمر فإن المعاصي والفجور ينقصه، ففي حديث ثوبان ﷺ: "لَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ"[١]، وحديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"[٢]، قيل المراد بنقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه، وقيل: هو على حقيقته وأنها تنقصه كما تنقص الرزق، فجعل الله ﷻ للبركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباباً تكثره وتزيده، قالوا: ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال والسعادة

١- أخرجه ابن ماجه، ٣٥/١ برقم: ٩٠، وأحمد في المسند، ٢٨٠/٥ برقم: ٢٢٤٦٦، قال الإمام الألباني: «حسن»، انظر: صحيح سنن ابن ماجة، ٣٧١/٢ برقم: ٣٢٤٨.

٢- أخرجه البخاري، ٢٢٣٢/٥ برقم: ٥٦٤٠، ومسلم، ١٩٨٢/٤ برقم: ٢٥٥٧.

والشقاوة والصحة والمرض والغني والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها.

وقال آخرون تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة، وهي حياة القلب، ولهذا جعل الله ﷻ الكافر ميتاً غير حي، فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها، فإن العبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية، ولا يخلوا إما أن يكون له مع ذلك متطلعاً إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقي من عمره، وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته.

١٠- أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف: «إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها»، فلا يزال العبد يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتأزه إليها أزاً، فإذا قوي جند المعصية بالمدد كانوا أعواناً عليها.

١١- المعاصي تقوي إرادة المعصية؛ لضعف القلب عن إرادته، فتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، حتى أن البعض –والعياذ بالله– لو مات نصفه لما تاب إلى الله توبة صادقة.

١٢- أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب والمعاصي حتى تهون عليه وتصغر في قلبه، والذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه»[1]، والمعصية إذا هانت في القلب وصغرت يزول من القلب استقباحها فتصير له عادة، حتى يصل بالبعض إلى أن لا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهو عند أرباب الفسوق غاية التفكه وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها غيره، وهذا الضرب من الناس لا يعافون كما قال رسول الله ﷺ: **"كُلُّ أَمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْه"**[2].

١- أخرجه البخاري ٥/٢٣٢٤ برقم: ٥٩٤٩.

٢- أخرجه البخاري، ٥/٢٢٥٤ برقم: ٥٧٢١، ومسلم، ٤/٢٢٩١ برقم: ٢٩٩٠، عن أبي هريرة.

١٣- المعصية تورث الذل والهوان والصغار، قال الإمام البخاري: «ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: "جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ على من خَالَفَ أَمْرِي"[١]، وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.

وقال ابن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب	ويتبعها الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها
وهل بدل الدين إلا الملوك	وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا	وفي البيع لم تغل أثمانها
لقد وقع القوم في جيفة	تبين لذي العقل إنتانها

١٤- عودة شؤم الذنب والمعصية على العاصي وعلى غيره من الناس والدواب، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما مر بالحِجْرِ قال: "لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهْوَ عَلَى الرَّحْلِ"[٢].

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة:١٥٩] قال: «دواب الأرض -الخنافس والعقارب- يقولون: منعنا القطر بخطايا بني آدم»[٣].

١٥- ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]، قال ابن القيم: «قال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: الذنوب؛ قلت: أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول فالمراد بالفساد: النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكل ما أحدثوا ذنباً أحدث لهم عقوبة... والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة»[٤]، وقال الحسن: «أفسدهم الله بذنوبهم في بر

١- أخرجه البخاري، ٣/١٠٦٧ معلقاً.

٢- أخرجه البخاري، ٣/١٢٣٧ برقم: ٣٢٠٠.

٣- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ١٩٨ برقم: ٣٣١٧.

٤- الجواب الكافي، ص٤٢.

الأرض وبحرها بأعمالهم الخبيثة»[1]، وقال أبو العالية: «من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة»[2]، وقال مجاهد: «إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل»[3]، وقال الألوسي «كالجدب والموتان[4]، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضار»[5]، وقال السعدي: «أي: فساد معايشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها»[6]، قال ابن القيم: «ونَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أُخَرُ متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم»[7].

ومن تأثير المعاصي في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ومحق بركتها، قال كعب: «إنما زلزلت الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي، فترعد فرقاً من الرب عز وجل أن يطلع عليها»[8]، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: «أما بعد فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد»[9].

١٦- المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نوراً والمعصية تطفئ هذا النور فيضعف وينقص، قال بعض السلف: «ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله»، وصدق فيما قال؛ إذ لو حضره عقله حجزه عن العصيان، بل إن المعاصي تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أو فر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أمد، والصواب قرينه، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول كقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة:١٠٠]، وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره وهو

١- أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/١٨٨، برقم: ٣٥٢٠٥.

٢- تفسير ابن كثير ٣/٤٣٦.

٣- تفسير ابن أبي حاتم، ٢/٣٦٧، والجواب الكافي، ص٤٢.

٤- قال ابن منظور: «والمُوتان و المَوَتان كله الموت يقع في المال والماشية» لسان العرب ٢/٩٣.

٥- روح المعاني ٢١/٤٧.

٦- تفسير السعدي، ص٦٤٣.

٧- الطب النبوي ص٢٨٢.

٨- الجواب الكافي، ص٣٠.

٩- سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٦٤.

يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه وخذلانه له وحرمانه.

١٧- تؤثر على القلب: فتضعف سيره إلى الله تعالى أو تعوقه وتوقفه عن السير هذا إن لم ترده عن وجهته، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، وإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه، وإذا تكاثرت الذنوب طبع على قلب صاحبها فيكون من الغافلين، والمعاصي تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فإن الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة، والمعاصي تعمي القلب فتضعف بصيرته وقوته عن معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وتطمس نور القلب، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية عنه، والمعاصي تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً، وأمراض القلوب متى استحكمت قتلت، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة التي تحفظ له قوته، وبتوبة نصوح تستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها، والتقوى تتناول هذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره، والذنوب والمعاصي مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فحفظ قوة القلب بامتثال الأوامر، واستعمال الحمية باجتناب النواهي، واستفراغ التخليط بالتوبة النصوح، ومن صنع ذلك لم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهربا.

١٨- المعاصي تضعف في القلب تعظيم الله جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرئ على معاصيه، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمجترئ على معاصيه ما قدره حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من المحال.

١٩- ومن أضرارها ما يلقيه الله ﷻ من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفاً مرعوبا؛ فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلب مأمنه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصد إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء، والسبب أن الطاعة توجب القرب من الله ﷻ، وكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما زاد البعد قويت الوحشة.

٢٠- ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير.

٢١- المعاصي تستدعى نسيان الله لعبده وتركه، ويخلي بينه وبين نفسه، وبينه وبين شيطانه، قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله ﷻ وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، كما أنها تنسي العبد نفسه، فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها بتركه لتربيتها وتزكيتها.

٢٢- المعاصي تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه من ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه.

٢٣- العاصي في الغالب تفوته رفقة المؤمنين، ويخرج عن دائرة الإيمان، وبالتالي يفوته حسن دفاع الله عنه؛ فان الله يدافع عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الحج:٣٨].

٢٤- المعاصي تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب، ولا حلت به نقمة إلا بذلك، نسأل الله لنا جميعاً العافية، وقد قال القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم

٢٥- سقوط الجاه والمترلة والكرامة عند الله وعند خلقه؛ فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه مترلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد تكون له مترلة عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فيعيش بينهم أسوء عيش، خالي الذكر، ساقط القدر، فلا فرح له ولا سرور، بل كل غم وهم وحزن، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ، إِنَّ اللَّهَ قد أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ في السَّمَاء، إِنَّ اللَّهَ قد أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاء، وَيُوضَعُ له الْقَبُولُ في أَهْلِ الأرض"[١]، وزاد مسلم في روايته: "وإذا أَبْغَضَ عَبْداً عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فيقول: إني أُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيل، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاء، إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضُوهُ، قال: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له الْبَغْضَاءُ في الأرض"[٢].

إن من عظيم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي له قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[ص:٤٥-٤٦] أي: خصصناهم.

---

[١]- أخرجه البخاري، ٦/٢٧٢١ برقم: ٥٦٩٣، ومسلم، ٤/٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧.

[٢]- أخرجه مسلم، ٤/٢٠٣٠ برقم: ٢٦٣٧.

٢٦- المعاصي تسلب من صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع والمنيب والورع والمصلح والعابد والخائف والأواب والطيب ونحوها، وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن والغادر وقاطع الرحم وأمثالها، قال ابن القيم بعد أن ذكر الكلام السابق: «فهذه أسماء الفسوق و﴿بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾[الحجرات:١١] التي توجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[الحج:١٨]»[١].

٢٧- المعاصي تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:١٠]، قال ابن كثير: «أي: أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل»[٢]، وقال السعدي: «﴿دَسَّاهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب والذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها»[٣].

فالتدسية الإخفاء، والعاصي يدسي نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، فالمعصية تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئاً لأن يكون من أهل المراتب العالية في الدنيا والآخرة ليكون من الأسفلين في الدنيا والآخرة، فصار أهون الخلق على الخالق، وأصبح من أهل الذلة والصغار، وكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعليين، وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

٢٨- ومن أضرارها أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

١- الجواب الكافي، ١/٥٤.

٢- تفسير ابن كثير ٤/٥١٧.

٣- تفسير السعدي ص٩٢٦

﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾[الجن:١٦].

٢٩- ومن أضرارها أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله ﷻ ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، صاحبه ينام ولا ينام عنه، ويغفل ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراهم، يبذل جهده في معاداته بكل حال، لا يدع أمر يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الإنس وغيرهم من شياطين الجن، وقد نصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليَّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه، وقد أمد الله تعالى بني آدم بعساكر وجند يلقون بها هذا العدو، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم به، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، والمعاصي من الأسلحة والعساكر التي يضل به الشيطانُ الإنسان[١].

٣٠- حلول البلايا والفتن والمصائب والمحن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى:٣٠]، وقال ﷻ: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥].

٣١- الضعف ووهن المسلمين وعدم قوتهم في أقطار الدنيا في العَدد والعُدد عن مقاومة الكفار، وهذا الضعف يؤدي إلى تفكك المجتمعات، وتفريق الجماعات، وتمزيق الأمة، ويورث الأمة الذل والهوان على الله ثم على الناس، وتكالب الأعداء على الأمة، والهزيمة أمامهم، ويسبب ضعف الإيمان وقلة اليقين[٢].

٣٢- تسلط الأعداء وأعوانهم العملاء على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٥٢]، يقول ابن كثير: «﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ﴾أي: أول النهار ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾أي: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل الجبن، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾كما وقع للرماة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر بهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾

١- انظر: لموضوع أضرار المعاصي الجواب الكافي ص٣٤- ص٦٥، وموسوعة نضرة النعيم،١٠/ ٥٠٠٩

٢- موسوعة نضرة النعيم: ٤٧٩٤/١٠.

ثم أدالكم عليهم ليختبركم ويمتحنكم»[1]، ويقول الشنقيطي: «ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ»[2].

٣٣- نزول الهلاك، فعن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش رضي الله عنهم أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: **"لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ"**[3].

٣٤- العذاب في الآخرة، فمع كل ما سبق في الدنيا يلحق العاصي العذاب يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"**[4]، وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ"**[5].

---

[1]- تفسير ابن كثير، ٤١٣/١.

[2]- أضواء البيان، ٥٣/٣.

٣- رواه البخاري، ٣/ ١٢٢١ برقم: ٣١٦٨، ومسلم، ٤/ ٢٢٠٧ برقم: ٢٨٨٠.

٤- رواه البخاري، ٢٦٥٥/٦ برقم: ٦٨٥١.

٥- رواه مسلم، ١٧٢/١ برقم: ١٨٥.

المطلب السادس: مكفرات الذنوب

ذكر أهل العلم أن المؤمن إذا فعل سيئة، فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

السبب الأول: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٩]، وقال رسول الله ﷺ: "التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"[١] قال المناوي: «"التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ" توبة صحيحة مخلصة، "كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ" لأن العبد إذا استقام ضعفت نفسه، وانكسر هواه، وساوى من لا صبوة له».

السبب الثاني: أن يستغفر فيغفر له، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤]، وقال رسول الله ﷺ لماعز الأسلمي: "وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ"[٢]، وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني أبو بكر –وصدق أبو بكر ﷺ– أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥]"[٣]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[٤]، وعن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: "سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[٥]، وليعلم أن للاستغفار أثره في غفران الذنوب وستر العيوب والفوز بجنات الخلود، قال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

١- أخرجه ابن ماجه ١٤١٩/٢ برقم: ٤٢٥٠، حسنه الألباني في صحيح سن ابن ماجة ٢/ ٤١٨ برقم: ٣٤٢٧.

٢- أخرجه مسلم ١٣٢٢/٣برقم: ١٦٩٥.

٣- أخرجه أبو داود ٨٦/٢ برقم: ١٥٢١، والترمذي، ٢٥٧/٢ برقم: ٤٠٦، وأحمد في المسند، ٨/١ برقم: ٤٨، قال الألباني: «صحيح» صحيح الترغيب والترهيب، ١٢٥/٢ برقم: ١٦٢١.

٤- أخرجه البخاري ٢٣٢٤/٥ برقم: ٥٩٤٨.

٥- أخرجه البخاري، ٢٣٢٣/٥ برقم: ٥٩٤٧.

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران:١٣٥-١٣٦]، وأن له أثره في الدنيا في منعه العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣]، وله أثره في استجلاب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل:٤٥- ٤٦]، وله أثره في الإمداد بالأموال والبنين: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[نوح:١٠-١٢].

قال ابن القيم: «وقال إبليس -لعنه الله-: أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»[1].

- **استغفار مع إقلاع**

عن الفضيل بن عياض قال: «استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»، ويقاربه ما جاء عن رابعة العدوية قالت: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير»، وعن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: «اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليَّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك، يا أرحم الراحمين»[2].

قال سهل: «لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء، فإن عصى قال: يا رب استر عليَّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب علي».

وسئل عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: «أول الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة، وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له»[3].

وأفضل أوقات الاستغفار الأسحار: قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[آل عمران:١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات:١٨].

١- الجواب الكافي ١/١٠٠، ١٠١.

٢- الأذكار ١/٣٢٣، ٣٢٤.

٣- إحياء علوم الدين ٤/٤٨.

السبب الثالث: أن يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود:١١٤]، وعن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[1].

السبب الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حياً أو ميتاً، فإن دعاء المرء لأخيه في ظهر الغيب مستجاب، فعن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: قدمت الشام، فأتيت أبا الدرداء في مترله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير فإن النبي ﷺ كان يقول: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ؛ عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"، قال: فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء ،فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ[2]، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: "إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ. فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَقُولُ؟ قَالَ : قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَأَعْقِبْنَا عُقْبَى صَالِحَةً، قَالَتْ فَأَعْقَبَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ"[3]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[4].

بل إن الذكر الحسن والثناء على الميت من موجبات الرحمة فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "مُرَّ بِجِنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْراً، فَقَالَ نَبِيُّ اللهُ ﷺ:"وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، ومر بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: فِدَى لك أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ؛ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ"[5]، فيا هل ترى العاصي بماذا سيذكره الناس بعد موته، وبماذا سيشهدون، وهل سيدعون له؟! من ظن ذلك فقد أخطأ في الغالب؛ لأن العصاة يستريح منهم العباد والبلاد، فعن أبي قتادة

١- أخرجه الترمذي ٣٥٥/٤ برقم: ١٩٨٧، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، قال الألباني: «حسن لغيره» صحيح الترغيب والترهيب ٨/٣ برقم: ٢٦٥٥.

٢- أخرجه مسلم ٢٠٩٤/٤ برقم: ٢٧٣٣.

٣- أخرجه أبو داود ١٩٠/٣ برقم: ٣١١٥، قال الألباني: «صحيح»، صحيح سنن أبي داود، ٦٠٢/٢ برقم: ٢٦٧٢.

٤- أخرجه مسلم ١٢٥٥/٣ برقم: ١٦٣١.

٥- أخرجه البخاري ٤٦٠/١ برقم: ١٣٠١، ومسلم ٢/ ٦٥٥ برقم: ٩٤٩.

الأنصاري ﷺ أنه كان يحدث: أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"(١).

السبب الخامس: أن يهدوا له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به، كأن يتصدق عنه أحد أو يحج أو يعتمر عنه، فعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ"(٢).

قال النووي: «وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها، وهو كذلك بإجماع العلماء، وكذا أجمعوا على وصول الدعاء، وقضاء الدين؛ بالنصوص الواردة في الجميع، ويصح الحج عن الميت إذا كان حج الإسلام، وكذا إذا وصى بحج التطوع على الأصح عندنا، واختلف العلماء في الصوم إذا مات وعليه صوم، فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه»(٣).

وقال ابن تيمية: «أما الصدقة عن الميت فإنه ينتفع بها باتفاق المسلمين، وقد وردت بذلك عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة... وكذلك ينفعه الحج عنه، والأضحية عنه، والعتق عنه، والدعاء والاستغفار له بلا نزاع بين الأئمة»(٤).

السبب السادس: أن يشفع له نبينا محمد ﷺ، صاحب الشفاعة(٥)، ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه و لم يقروا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها(٦)، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قيل يا رسول، الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: "لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ"(٧)، وعنه ﷺ في قال: قال

١- أخرجه البخاري ٥/٢٣٨٨ برقم: ٦١٤٧، ومسلم ٢ / ٦٥٦ برقم:٩٥٠.

٢- أخرجه مسلم، ٢/٦٩٦ برقم: ١٠٠٤.

٣- شرح صحيح مسلم ٧/٩٠

٤- مجموع الفتاوى ٢٤/٣١٤، ٣١٥.

٥- عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول ﷺ قال: "أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الْمَغَانِمُ ولم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً"، أخرجه البخاري، ١/١٢٨ رقم: ٣٢٨، ومسلم ١/٣٧٠ رقم: ٥٢١

٦- مجموع الفتاوى ١/١٥٣، ١٥٤.

٧- أخرجه البخاري ١/٤٩ برقم: ٩٩.

رسول الله ﷺ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[1]، وعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أَتَانِي آتٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يُدْخِلَ نِصْفَ أُمَّتِي الجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ لِمَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[طه:١٠٩] فلا يقدم أحد على الشفاعة حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا عن أهل الإخلاص والتوحيد له[3]، ممن نطق بلسانه بالحق، وأقر به بقلبه عالماً بما يشهد به، فيشهد لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة وصحة ما جاءوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عقاب الله الحائزون لثوابه[4].

وأن يجانب المعاصي ويسارع إلى الطاعات فإن الطائعين هم أول الفائزين بشفاعته ﷺ، ولهذا لما طلب الخادم من النبي ﷺ الشفاعة طلب منه الإكثار من الطاعة، فعن زياد بن أبي زياد مولى بني مخزوم عن خادم للنبي ﷺ رجل أو امرأة قال: كان النبي ﷺ مما يقول للخادم: "أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، حَاجَتِي قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: حَاجَتِي أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا؟ " قَالَ: رَبِّي قَالَ: إِمَّا لا، فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ"[5].

السبب السابع: أن يبتليه الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ[6]، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ أَذًى، وَلاَ غَمٍّ حَتَّى

١- أخرجه مسلم، ١/١٨٩ برقم: ١٩٩.

٢- أخرجه الترمذي، ٤/٦٢٧ برقم: ٢٤٤١، وأحمد، ٤/٤٠٤ برقم: ١٩٦٣٤، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ٣/٢٣٨.

٣- تفسير السعدي ج١/ص٣٥٧

٤- تفسير السعدي ج١/ص٧٧١

٥- أخرجه أحمد في المسند، ٣/٥٠٠ برقم: ١٦١٢٠، قال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن أبي زياد –واسمه ميسرة وهو مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي–فمن رجال مسلم»، وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، مجمع الزوائد،٢/٥١٥ رقم: ٣٥٠٣، وقال الألباني: «صحيح»، السلسلة الصحيحة، ٥/١٣٨ رقم: ٢١٠٢.

٦- النَصَب: هو التعب، والوَصَب: أي مرض، وقيل: هو المرض اللازم، والهم والحزن هما من أمراض الباطن ولذلك ساغ عطفهما على الوصب، والأذى هو أعم مما تقدم، وقيل هو خاص بما يلحق الشخص من تعدي غيره عليه، قوله والغم هو أيضا من أمراض الباطن وهو ما يضيق على القلب، وقيل: في هذه الأشياء الثلاثة وهي الهم والغم والحزن أن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به، والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل، والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده، وقيل الهم والغم بمعنى واحد، وقال الكرماني: الغم يشمل جميع أنواع المكروهات؛ لأنه إما بسبب ما يعرض للبدن أو النفس، والأول إما بحيث يخرج عن المجرى الطبيعي أو لا، والثاني إما أن يلاحظ فيه الغير أو لا وإما أن يظهر فيه الانقباض أو لا، وإما بالنظر إلى الماضي أو لا، فتح الباري، ١٠/١٠٦

الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"مَا مِنْ شَيءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ حَتَّى الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً أَوْ حُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ"**[2].

السبب الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه.

السبب التاسع: أن يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر به عنه.

السبب العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما؛ قال تعالى فيما يروى عنه رسوله ﷺ: **"يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ"**[4]»[5].

١- أخرجه البخاري ٥/ ٢١٣٧ برقم: ٥٣١٨.

٢- أخرجه مسلم ٤/١٩٩١ برقم: ٢٥٧٢.

٣- انظر: مجموع الفتاوى ٤٥/١٠.

٤- صحيح مسلم ج٤/ص١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧، والحديث بتمامه عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **"يا عِبَادِي إِنِي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ فاستهدونى أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ فاستطعمونى أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ فاستكسونى أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعا فاستغفرونى أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ"** قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

٥- مجموع الفتاوى ٤٦/١٠.

المبحث الثاني: الخلاص والنقاء، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كيفية تعامل المسلم المبتلى بالعصيان.

المطلب الثاني: برنامج عملي للتخلص من المعاصي.

المطلب الثالث: وقفات مع التغيير.

المطلب الأول: كيفية تعامل المسلم المبتلى بالعصيان

إذا ابتلي المسلم بارتكاب المعاصي أياً كان نوعها، فإن عليه القيام بالخطوات الآتية:

الخطوة الأولى: أن يتذكر الحكمة من خلقه ووجوده، وليعرف أنه عبد لله تعالى، فإن الغاية والسبب في وجوده هي العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، وهذه العبادة متضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة لله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل؛ لأنه يعلم أنه عبد، والعبد ملك لسيده ومولاه، وملزم بالخضوع له وطاعته وتنفيذ أمره واجتناب نهيه، ولهذا كان أول واجب على المسلم في الحياة هو معرفة الله تعالى كما قال ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد:١٩].

قال السعدي: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»[1].

الخطوة الثانية: الحياء من الله عز وجل والعفة عن محارمه

إن الحياء من الله هو الأصل والأساس؛ فإن الله أحق أن يستحيا منه، فعن بهز بن حكيم بن حزام عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: "اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ"[2]، وعنه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: "احْفَظْ عَوْرَتَكَ إلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، قَالَ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلاَ يَرَيَنَّهَا، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا قَالَ: اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ"[3]، وعن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن يزيد الأزدي أنه قال للنبي ﷺ: أوصني قال: "أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عز وجل كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ"[4].

١- تفسير السعدي، ص٨١٣.

٢- أخرجه البخاري معلقا، ١/ ١٠٧.

٣- أخرجه أبو داود، ٢/ ٤٣٧ برقم: ٤٠١٧، و سنن الترمذي، ٥/٩٧ برقم: ٢٧٦٩، وابن ماجه ٦١٨/١ برقم: ١٩٢٠، قال الألباني: «حسن»، صحيح ابن ماجة، ٣٢٤/١ برقم: ١٥٥٩.

٤- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٦٩/٦ برقم: ٥٥٣٩، قال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم»، ومجمع الزوائد، ٥٠٦/١٠ برقم: ١٨٠٤٤.

إن الحياء من الله تعالى يكون باتقاء محارمه بترك المعاصي والفواحش والقبائح والسيئات والشهوات والملذات المنهيات، وفعل الطاعات والمحاسن والخيرات، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ"**[1].

"حَقَّ الحَيَاءِ" أي: حياءً ثابتاً لازماً صادقاً، فيتقي الله حق تقاته[2]، فيحفظ الرأس عن استعماله في غير طاعة الله، بأن لا يسجد لغيره، ولا يصلي للرياء، ولا يخضع به لغير الله، ولا يرفعه تكبرا.

"وَمَا وَعَى" أي: جميع الرأس من اللسان والعين والأذن، فيحفظ الجميع عما لا يحل.

ويحفظ البطن عن أكل الحرام، **"وَمَا حَوَى"** أي: ما اتصل اجتماعه به من الفرج والرجلين واليدين والقلب، فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف، وحفظها بأن لا يستعملها في المعاصي، بل عليه أن يستعملها في مرضاة الله تعالى وطاعته، وليتذكر الموت وصيرورته في القبر عظاماً بالية، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا؛ فإنهما لا يجتمعان على وجه الكمال حتى للأقوياء، ولأنهما ضرتان فمتى أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى[3]، قال الطيبي: «ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه وقوله عما لا يرضاه، فليحفظ رأسه وما وعاه من الحواس الظاهرة والباطنة، واللسان والبطن، وما حوى أي لا يجمع فيه إلا الحلال»[4].

إن الحياء لما كان مانعاً من الفواحش وحائلاً بين العبد وبين الذنوب والمعاصي، ويشتمل على كثير من أعمال البر والخير كان من الأيمان فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"**[5]، وفي رواية: **"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"**[6]، وفي رواية: **"الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"**[7]، وعن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما

١- أخرجه الترمذي ٤/ ٦٣٧ برقم: ٢٤٥٨، وأحمد ٣٨٧/١ برقم:٣٦٧١، قال الألباني: «حسن لغيره »، صحيح الترغيب والترهيب ١٤٩/٢ برقم: ١٧٢٤.

٢- فيض القدير ٤٨٧/١، وتحفة الأحوذي ١٣٠/٧.

٣- تحفة الأحوذي ١٣١/٧.

٤- مرقاة المفاتيح ٦٧/٤.

٥- رواه البخاري، ١٢/١ برقم: ٩.

٦- رواه مسلم، ٦٣/١ برقم: ٣٥.

٧- رواه مسلم، ٦٣/١ برقم: ٣٥.

أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: **"دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ "**[1]، قال ابن عبد البر: «ومعنى هذا الحديث -والله أعلم- أن الحياء يمنع من كثير من الفحش والفواحش، ويشتمل على كثير من أعمال البر، وبهذا صار جزءا وشعبة من الإيمان؛ لأنه وإن كان غريزة مركبة في المرء، فإن المستحي يندفع بالحياء عن كثير من المعاصي، كما يندفع بالإيمان عنها إذا عصمه الله، فكأنه شعبة منه؛ لأنه يعمل عمله، فلما صار الحياء والإيمان يعملان عملاً واحداً جعلا كالشيء الواحد»[2].

إن الحياء خير كله فعن عمران بن حصين ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **"الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ"**[3]، قال العيني: «معناه أن من استحى من الناس أن يروه يأتي بالفجور وارتكاب المحارم، فذلك داعيه إلى أن يكون أشد حياءً من الله تعالى، ومن استحى من ربه، فإن حياءه زاجر له عن تضييع فرائضه، وركوب معاصيه، والحياء يمنع من الفواحش، ويحمل على البر والخير كما يمنع الإيمان صاحبه من الفجور، ويبعده عن المعاصي، ويحمله على الطاعات، فصار الحياء كالإيمان لمساواته له في ذلك»[4]، فإذا زال الحياء فلا يحول بين الإنسان وبين الفحش شيء.

لقد ذكر ابن القيم أن الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخُلق لم يكرم الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم تؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقاً، ولم يصل له رحماً، ولا بر له والداً، فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي وهو حياء فاعلها من الخلق، فتبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها[5]، يقول ابن القيم: «إن للإنسان آمرين وزاجرين، آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولا بد، فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي صنع ما يشتهي»[6].

١- رواه البخاري، ١/١٧ برقم: ٢٤، ومسلم، ١/٦٣ برقم: ٣٦.

٢- التمهيد، ٩/٢٣٤.

٣- رواه البخاري، ٥/٢٢٦٧ برقم: ٥٧٦٦، ومسلم، ١/٦٤ برقم: ٣٧.

٤- عمدة القاري، ٢٢/١٦٤.

٥- مفتاح دار السعادة ١/٢٧٧، ٢٧٨.

٦- مفتاح دار السعادة ١/٢٧٨.

إن العبد لو استحيا من الله تعالى حق الحياء، وعلم أنه مطلع عليه، يرى حركاته وسكناته، ويطلع على ما في الصدور، لما أقدم على ذنب، ولما هم بمعصية، ولا وقع فيها.

- **من قدر على خمس خصال لا تضره معصية**

جاء إلى إبراهيم بن أدهم شاب فقال له: يا أبا إسحاق، إني مسرف على نفسي، فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي، قال: إن قبلت خمس خصال، وقدرت عليها، لم تضرك معصية، و لم توبقك لذة، قال: هات يا أبا إسحاق، قال: أما الأولى فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه، قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه، قال: له يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟! قال: لا، هات الثانية، قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئا من بلاده، قال الرجل: هذه أعظم من الأولى، يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هذا أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟! قال: لا، هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه، قال: يا إبراهيم،كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟ قال: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه، وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟! قال: لا، هات الرابعة، قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له أخرني حتى أتوب توبة نصوحا، وأعمل لله عملاً صالحاً، قال: لا يقبل مني، قال: يا هذا، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص! قال: هات الخامسة، قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذونك إلى النار فلا تذهب معهم، قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني، قال فكيف ترجو النجاة إذاً، قال له: يا إبراهيم، حسبي حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه، ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما[1].

الخطوة الثالثة: أن يتيقن بأن هذه الدنيا وما فيها إلى زوال

إن الدنيا وكل ما فيها من ملذات هي بالقطع إلى زوال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[فاطر:٥]، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ

١- التوابين لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، ١/٢٨٥، ٢٨٦.

بمنكبي فقال: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"[1]، فإذا كانت الدنيا في غاية الحقارة وهي آيلة إلى الزوال والفناء، فلماذا الانكباب عليها والحرص على زخرفها الزائل والآيل إلى الفناء، وكيف نؤثرها على الآخرة الباقية، التي لانهاية لها، وكيف نعمل معاص قد تحرمنا من جنة عرضها السماوات والأرض؟!

لما سئل الحسن البصري -عليه رحمة الله- عن سر زهده في الدنيا؟ قال: أربعة أشياء: علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فأطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشغلت به وحدي، وعلمت أن الله مطلع عليَّ فاستحييت أن يراني على معصية، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي، فهكذا يفعل اليقين بأهله[2].

الخطوة الرابعة: أن يتذكر أحوال الآخرة

فيتذكر الموت وفجأته، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥]، وقال ﷺ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان:٣٤]، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[3]، وليعلم أن الموت قد يأتيه وهو يمارس معصيته، منهمك فيها، غارق بين أمواجها، فلو جاءه ملك الموت وهو في معصيته وغفلته حينها ماذا يتمنى؟ الرجوع المحال، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠]، والمتأمل في أحوال الموتى يجد العجب، ولو أردنا أن نقف مع فجأة الموت وخطفته لطال بناء المقام، فمن أراد ذلك فليقف على أحوالهم، وسيجد عند الناس من ذلك الشيء الكثير، والسعيد من اتعظ بغيره، فمن حدثته نفسه بالذنوب فليتذكر أحوال الهالكين في معاصيهم.

وأن يتذكر عندما يحمل على الأكتاف وهو جنازة، أين تذهب قوته وشبابه وكبريائه وملذاته وأصدقائه وماله وأهله وجاهه وسلطانه؟! وهل سينفعه شيء من ذلك-كلا والله- وهل سيكون مستريح أو مستراح منه، فقد مر على النبي ﷺ بجنازة فقال: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ الله، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"[4].

١- أخرجه البخاري ٢٣٥٨/٥ برقم: ٦٠٥٣.

٢- موسوعة الدين النصيحة، ١٥١/٢.

٣- أخرجه البخاري ٢٣٥٨/٥ برقم: ٦٠٥٣.

٤- أخرجه البخاري ٢٣٨٨/٥ برقم: ٦١٤٧، ومسلم ٢ / ٦٥٦ برقم:٩٥٠.

وأن يتذكر القبر وظلمته ووحشته وخلوته، وعندما يوضع فيه ويتركه الأهل والأصحاب والمال والجاه والسلطان، وأن عمله في الدنيا هو الأنيس له الذي سيدخل معه في قبره، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ"[1] فيا ترى ما هي هذه الأعمال التي ستكون معه في قبره؟! هل هي القنوات و الملهيات؟! أم الصحون والفضائيات، أم الصور والمجلات؟! أم المواقع والدردشات؟! أم الإيقاعات والموسيقات، أم القروض بالفائدة والاستثمارات الربوية، أم المكر والكذب والخديعة المسمى بالدهاء والذكاء والسياسة.

ويا هل ترى كيف سيكون حاله في قبره؛ فإن العصاة يعذبون فيها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فكذبتهما و لم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا ودخل عليَّ النبي ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين وذكرت له؟ فقال لي: "صَدَقَتَا إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا، فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلاَةٍ إِلاَّ تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"[2]، وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "
إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا –قَالَ قَتَادَةُ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ– وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ، وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ"[3].

وأن يتذكر البعث والنشور والخروج من القبور، وكيف يكون حاله عند بعثه؛ فإن من مات على شيء بعثه الله عليه، فعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللهُ عَلَيْهِ"[4]، وقال ﷺ في الرجل الذي سقط من ناقته وهو محرم في عرفات فدهسته فمات: "اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلاَ تُحَنِّطُوهُ، وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ؛ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا"[5]، فهذا يبعث ملبيا، وآخر يبعث مهللا، وثالث يبعث تالياً للقرآن ذاكراً للرحمن.

١- أخرجه البخاري، ٢٣٨٨/٥ برقم: ٦١٤٩، ومسلم، ٢٢٧٣/٤ برقم: ٢٩٦٠.

٢- أخرجه البخاري، ٢٣٤١/٥ برقم: ٦٠٠٥، ومسلم،٤١١/١ برقم: ٥٨٦.

٣- أخرجه البخاري، ٤٦٢/١ برقم: ١٣٠٨.

٤- أخرجه أحمد في المسند، ٣١٤/٣ برقم: ١٤٤١٣، قال الألباني: « صحيح» انظر: السلسلة الصحيحة، ٥٧٢/١ برقم: ٢٨٣.

٥- أخرجه البخاري، ٤٢٥/١ برقم: ١٢٠٦، ومسلم، ٨٦٥/٢ برقم: ١٢٠٦.

وأذكر هنا قصة المُدَرِسة السعودية المؤمنة الصالحة أم محمد والتي كانت مع تسع مدرسات طلبن من السائق أن يفتح شريطاً غنائياً فأجاب لهن ولبى طلبهن، فقالت له هذه الصالحة: أنا لا أريد الغناء، فأجابها غاضباً ماذا أصنع لكي فهذه رغبة المدرسات، ثم جعلت المدرسات يتراقصن في الباص، غناء ورقص وعناد -معاذ الله- وكأنهن يردن معاندة هذه الصالحة، تسع نسوة بهذه الحالة فكيف يكون حال السائق، حاله الذهاب إلى عالم آخر غير الطريق الذي يسير فيه، وفي غفلة منه وغضب من الجبار جل جلاله، يتحول هذا الغناء والرقص إلى أشلاء وجثث، بعد أن يخرج الباص عن طريقه ومساره بسرعته مصتدماً وملقياً بالأجساد التي فيه، لتتقطع الأجساد وتظهر السوءات ومن بقيت سليمة منهن تلقن الشهادة فتردها وترفضها، أما تلك الصالحة فيعثر عليها على بعد مسافة وقد قذفها الباص وهي ملفوفة بحجابها لا يرى منها شيء سوى آثار الضربات من وراء حجابها، ثم تنقل إلى المستشفى وهي تقول لمن يحملها ليسعفها اتق الله ولا تمس جسدي، ثم تفيض روحها إلى خالقها ولسانها رطب بذكره! فسبحان الله كيف حال هذه من رفيقاتها، فصدق الله القائل: ﴿يثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧]، وصدق رسوله الله ﷺ القائل: "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ"[1].

وأن يتذكر دنو الشمس من رؤوس الخلاق، وأن الشدة في الموقف والجهد يكون على قدر الأعمال، فعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ -قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا يَعْنِى بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟- قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ"[2].

وأن يتذكر العرض على الله حين يَعْرِض عليه مولاه صحائف أعماله، ويكشفها له ليحاسبه عليها، فتعرض عليه جميع أعماله، لا يخفى منها شيء، كيف يكون الحال في هذا العرض والمقام إذا اسودت فيه الصحائف، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨١] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[الحاقة:١٨]، لا من أجسادكم وذواتكم، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة[3].

١- أخرجه الترمذي، ٤/٦٦٧ برقم: ٢٥١٦، وأحمد، ١/٢٩٣ برقم: ٢٦٦٩، قال الألباني «صحيح»، انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، ص١٣٩٢ برقم: ١٣٩١٧.

٢- أخرجه مسلم، ٤/٢١٩٦ برقم: ٢٨٦٤.

٣- تفسير السعدي ص٨٨٣.

وأن **يتذكر المرور على الصراط** ذلك الجسر المنصوب على متن جهنم، أحد من السيف وأدق من الشعر، والمرور فيه على قدر الإعمال، قال ﷺ: "**ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بين ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما الْجَسْرُ؟ قال: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شوكة عقيفة تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لها السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عليها كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ في نَارِ جَهَنَّمَ، حتى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْباً**"[1].

وأن **يتذكر الميزان الذي يوضع يوم القيامة لتوزن فيه الحسنات والسيئات**، وأنه ميزان دقيق، ولا يغيب فيه شيء من الأعمال، قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[الأنبياء:٤٧]، وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: "**يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لاَ لَكَ وَلاَ عَلَيْكَ، إِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ، قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ:** ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[الأنبياء:٤٧] الآية، **فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ**"[2].

وأن **يتذكر الحوض** الذي يكون لنبينا ﷺ، طوله شهر وعرضه شهر، أحلى من العسل وأبيض من اللبن، وأطيب من المسك، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، وأن الذنوب والمعاصي قد تمنع من الشرب من ذلك الحوض، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "**لأَذُودَنَّ عَنْ حَوْضِي رِجَالاً كَمَا**

١- أخرجه البخاري، ٢٧٠٦/٦ برقم: ٧٠٠١، ومسلم، ١٦٧/١ برقم: ١٨٣، قوله: "**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ** " الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر، وقوله: " **خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ**" أما الخطاطيف فجمع خُطاف وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء، والكلاليب جمع كَلوب وهو حديدة معطوفة الرأس، وأما "**الحَسَكَ**" فشوك صلب من حديد، وقوله: "**مُفَلْطَحَةٌ**" أي: عريضة، وقوله: "**فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**" معناه أنهم ثلاثة أقسام: قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً، وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص، وقسم يكردس ويلقى فيسقط في جهنم، وأما "**مَكْدُوسٌ**" انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢٩،٣٠/٣، وفتح الباري ٤٢٩/١٣، والديباج على مسلم ٢٣٢/١، وعمدة القاري ١٣٠/٢٥.

٢- أخرجه الترمذي، ٣٢٠/٥ برقم: ٣١٦٥، انظر: صحيح الترغيب والترهيب للألباني،٢٣٠/٣ برقم: ٣٦٠٦، وصحيح سنن الترمذي، ٧٧/٣ برقم: ٢٥٣١.

تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الإِبِلِ "[1]، أي: يبعدهم ويردهم كما يبعد الساقي الناقة الغريبة عن إبله ويردها إذا أرادت الشرب معها[2]، وعليه فلابد من ترك الذنوب والمعاصي حالاً، وفي حديث أسماء عن النبي ﷺ قال: "**أَنَا عَلَى حَوْضِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي، فَيَقُولُ: لاَ تَدْرِي مَشَوْا عَلَى الْقَهْقَرَى**"، قال بن أبي مليكة: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن»[3].

وأن يتذكر الإنسان أنه لا ينفعه يوم القيامة سوى أن يأتي الله بقلب سليم، قال تعالى في وصف هذا اليوم: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[الشعراء:٨٨، ٨٩]، ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا، وهذه الخمسة حجب عن الله تعالى وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، ولا بد للمسلم من التخلص منها بالاستعانة بالله عز وجل[4].

وأن يتذكر النار وأنها دار من جملة من يدخلها العصاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**"[5].

وليتذكر لفحها وحرها وحميمها[6] وغسلينها[7] وشدة عذابها، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤُسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**"[8].

وليتذكر ما أعد فيها للعصاة من أنواع العذاب، قال تعالى ﴿**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**﴾[الأحزاب:٦٦]، ومن ذلك ما جاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ –يعني– مما يكثر أن يقول لأصحابه: "**هل رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ من رُؤْيَا؟**

١- أخرجه مسلم، ٤/١٨٠٠ برقم: ٢٣٠٢.

٢- شرح النووي لصحيح مسلم ١٥/٦٤.

٣- أخرجه البخاري، ٦/٢٥٨٧ برقم: ٦٦٤١.

٤- الجواب الكافي لابن القيم ١/٨٤، ٨٥.

٥- رواه البخاري، ٦/٢٦٥٥ برقم: ٦٨٥١.

٦- الحميم: الماء الحار الذي يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء. انظر: تفسير السعدي ص٣٥٨.

٧- الغسلين: وهو صديد أهل النار الذي هو في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم، تفسير السعدي ص٨٨٤.

٨- أخرجه مسلم، ٤/٢١٦٢ برقم: ٢٨٠٧.

قال: فَيَقُصُّ عليه من شاءَ الله أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قال ذَاتَ غَدَاةٍ: إنه أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قالا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا على رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وإذا آخَرُ قَائِمٌ عليه بِصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فيتدهده الْحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إليه حتى يَصِحَّ رَأْسُهُ كما كان، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ما فَعَلَ به مرة الْأُولَى، قال: قلت لَهُمَا سُبْحَانَ اللَّهِ ما هَذَانِ؟ قال: قالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قال: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا على رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخَرُ قَائِمٌ عليه بِكَلُّوبٍ من حَدِيدٍ، وإذا هو يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إلى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إلى قَفَاهُ –قال: وَرُبَّمَا قال أبو رَجَاءٍ فَيَشُقُّ– قال: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلى الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ما فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فما يَفْرُغُ من ذلك الْجَانِبِ حتى يَصِحَّ ذلك الْجَانِبُ كما كان، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، قال: قلت سُبْحَانَ اللَّهِ ما هَذَانِ؟ قال: قالا لي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا على مِثْلِ التَّنُّورِ، قال: وأحسب أَنَّهُ كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قال فَاطَّلَعْنَا فيه فإذا فيه رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وإذا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ من أَسْفَلَ منهم، فإذا أَتَاهُمْ ذلك اللَّهَبُ ضَوْضَوْا، قال: قلت لَهُمَا ما هَؤُلَاءِ؟ قال: قالا لِي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قال: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا على نَهَرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كان يقول أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وإذا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وإذا على شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قد جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وإذا ذلك السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذلك الذي قد جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ له فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَراً، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إليه كُلَّمَا رَجَعَ إليه فَغَرَ له فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَراً، قال: قلت لَهُمَا ما هَذَانِ؟ قال: قالا لِي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قال: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا على رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ كَأَكْرَهِ ما أنت رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، فإذا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قال: قلت لَهُمَا ما هذا؟ قال: قالا لِي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا... قال: قلت لَهُمَا فَإِنِّي قد رأيت مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لِي أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الذي أَتَيْتَ عليه يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فإنه الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عن الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الذي أَتَيْتَ عليه يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إلى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إلى قَفَاهُ، فإنه الرَّجُلُ يَغْدُو من بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الذي أَتَيْتَ عليه يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحجارة فإنه آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الذي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فإنه مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ"[1]، وما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله

١- أخرجه البخاري، ٢٥٨٣/٦ برقم: ٦٦٤٠.

عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ"[1]، أي: يحرم شربها في الجنة وإن دخلها؛ فإنها من فاخر شراب الجنة، فيمنعها هذا العاصي بشربها في الدنيا، ويكون هذا نقص نعيم في حقه تمييزاً بينه وبين تارك شربها[2]، وقد وصف الله تعالى هذه الخمرة بقوله: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين *لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾[الصافات:٤٥-٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾[محمد:١٥]، قال ابن كثير: «أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل»[3]، قال السعدي: «وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة للشاربين﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده وأنها سالمة، ﴿لا فيها غول﴾ العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر»[4]،

وجاء في حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً"[5].

أي يسحب أمعاءه في النار[6]، بعد أن يفتح بطنه، وفي هذا إشارة إلى أن كل من أكل أموال الناس وحقوقهم بسرقة أو نهب أو سلب أو ربا أو غش أو كذب، حتى أصحاب الحيل الذين يحتالون لأكل أموال الناس، ويا للعجب من كثرة هؤلاء في هذا الزمان وكأنهم غافلون أو متغافلون عن هذا الحديث، والعجيب أن البعض يعتبر السرقة بهذه الحيل من الذكاء والدهاء الذي يفخر به ويفرح به، ولا يعلم أنه بهذا الصنيع متعرض لعقاب الدنيا والآخرة، فإن ما أخذه هو نار وسحت يملأ به بطنه في الدنيا وهو بذلك متعرض لغضب الله تعالى ونزع البركة وحلول النقمة، فلو أدرك هؤلاء أن ما يأخذونه يجر عليهم من المصائب والويلات أضعاف أضعاف ما أخذوا لما أقدم أحدهم على ذلك، ثم يكون حالهم في الآخرة كحال صاحب المحجن الذي كان يحتال بمحجنه لسرقة أموال الحجاج، وعجباً ممن سلبوا ونهبوا ثروات الشعوب فأصبحت في أرصدتهم بالمليار كيف يكون حالهم أمام الجبار.

١- أخرجه البخاري، ٥/٢١١٩ برقم: ٥٢٥٣، ومسلم، ٣/١٥٨٨ برقم: ٢٠٠٣.

٢- شرح النووي لصحيح مسلم، ١٣/١٧٣.

٣- تفسير ابن كثير ٤/١٧٧.

٤- تفسير السعدي ص٧٠٣.

٥- أخرجه مسلم، ٢/٦٢٣ برقم: ٩٠٤.

٦- مرقاة المفاتيح ٦/١٣١.

الخطوة الخامسة: الوقوف على أضرار الذنوب والمعاصي وعواقبها

على العاصي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي لها أضرارها وعواقبها ونتائجها العاجلة والآجلة، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، فما من شر وبلاء وفتنة وداء في الدنيا والآخرة إلا كان سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج آدم وحواء من الجنة دار اللذة والنعيم إلى دار الآلام والأحزان والمصائب، وما الذي أخرج إبليس من ملكوت الله في السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه وبدله بالقرب بعدا وبالرحمة لعنة وبالجنة نارا تلظى، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تبارك وتعالى، وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم، وما الذي رفع قرى قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد، وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تلظى، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله، وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرا، وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تتبيرا، وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب!!! إنها الذنوب والمعاصي[1].

إنه كلما تفكرت الإنسان في النتائج المترتبة على الذنوب فإنه حينها يستطيع تركها، وقد سبق في المبحث الأول ذكر جملة من الأضرار والعواقب المترتبة على الذنوب والمعاصي فتراجع في موضعها.

١- انظر: الجواب الكافي لابن القيم، ١/٢٦، ٢٧.

الخطوة السادسة: استحضار العقوبة بالخوف والخشية والرهبة

فليعلم أن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه ويرهبوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه؛ ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال والتعظيم، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر ﷻ في كتابه ذكر النار وما أعده فيها لأعدائه من العذب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال إلى غير ذلك مما فيها من العظائم والأهوال، ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه، واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه[1].

فليستحضر العبد دائماً وعند إرادة المعصية خصوصاً عقوبة الله تعالى، استحضاراً يبعثه على الخوف المقرون بالإجلال والتعظيم والتحرز، وأن يضع نصب عينيه أنه لن يفلت من العقاب، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:٢١-٢٢]، وأن هذا العقاب قد يعاجله في الدنيا فتكون معيشته ضنكا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:١٢٤]، ويرسل عليه أنواعاً أخرى من الهموم والبلايا ما يجعله في نكد دائم وحزن مستمر، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف:١٦٣]، وإذا أفلت العاصي من عقاب الدنيا فإن عذاب الآخرة أشق، قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ﴾[الرعد:٣٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج:١٠]، وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[الإنفطار:١٤]، جحيم في الدنيا وجحيم في البرزخ وجحيم في الآخرة.

الخطوة السابعة: المسارعة والمبادرة إلى التوبة من الذنوب والمعاصي، بالإقلاع الفوري عنها وتركها، والندم على ما فرط، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال[2]، ورد المظالم إلى أهلها، والاعتذار عن الإساءات والإهانات التي يكون قد آذى بها غيره، وأول ذلك اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾[النساء:٣١]وقال ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾[الفرقان:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ

١- التخويف من النار، ص٥.

٢- المفردات في غريب القرآن ٧٦/١.

أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٨-٣٩]

إن التوبة والاستغفار هما الباب الذي لا يغلقه الله في وجه أحد ما لم يغرغر، فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعاً عدا الشرك به تعالى، قال الله تعالى: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾[المائدة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾[النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾[الأعراف:١٥٣].

قال النووي: «قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة وأن يبرأ من صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقي، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة»[1].

ومن الأدلة الواردة في شأن التوبة: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود:٩٠]، وحديث أبي بردة قال: سمعت الأغر وكان من أصحاب النبي ﷺ يحدث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[2]، وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "واللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[3]، وحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلاَةٍ "[4]، وعنه ﷺ قال: قال رسول ﷺ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ –مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ-: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ

١- رياض الصالحين ٨/١.

٢- أخرجه مسلم، ٢٠٧٥/٤ برقم: ٢٧٠٢.

٣- أخرجه البخاري ٢٣٢٤/٥ برقم: ٥٩٤٨.

٤- أخرجه البخاري، ٢٣٢٥/٥ برقم: ٥٩٥٠.

أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ "[١]، وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ أَنَّ لاِبْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[٢]، وحديث عمران بن حصين ﷺ أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى فقالت: يا نبي الله، أصبت حداً فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: "أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا، فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّى عَلَيْهَا يَا نَبِيَ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ، فَقَالَ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى"[٣]، وحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يَضْحَكُ الله إلى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كلاهما يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَقَالُوا: كَيْفَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: يُقَاتِلُ هذا في سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ الله على الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُقَاتِلُ في سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل فَيُسْتَشْهَدُ"[٤].

- **شمول التوبة لمراتب الدين**

قال ابن القيم: «فإذا التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فإذا التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته -كما تقدم- وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزء منها بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها، وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، و لم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها»[٥].

- **الباعث على التوبة**

إن الباعث على التوبة وعلاج الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره الله ﷻ من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين، فمن دام على ذلك

١- أخرجه مسلم، ٢١٠٤/٤ برقم: ٢٧٤٧.

٢- أخرجه البخاري، ٢٣٦٥/٥ برقم: ٦٠٧٥، ومسلم، ٧٢٥/٢ برقم: ١٠٤٨.

٣- أخرجه مسلم، ١٣٢٤/٣ برقم: ١٦٩٦.

٤- أخرجه البخاري، ١٠٤٠/٣ برقم: ٢٦٧١، ومسلم، ١٥٠٤/٣ بر قم: ١٨٩٠، واللفظ لمسلم.

٥- مدارج السالكين ٣٠٦/١، ٣٠٧

حتى قوي خوفه ورجاؤه دعا الله رغباً ورهباً، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب، وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة، قال القرطبي: «قلت وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى؛ فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها وانبعث منه الندم على ما فرط وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصراً على المعصية وملازماً لأسباب الهلكة، قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب عن الطعام والشراب كالثلاثة الذين خلفوا»[1].

- **التوبة النصوح**

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[التحريم:٨]، قال ابن القيم: «فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد منوطاً بحصول التوبة النصوح، والنصوح على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور، وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه ،والنصح ضد الغش، وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه... وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان، قلت النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته،

---

[1] – تفسير القرطبي ٢١١/٤، ٢١٢.

ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء همته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل، فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه، **فنصح التوبة**: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»[1].

قال الجرجاني: «والتوبة النصوح: هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على ألا يعود... وقيل التوبة النصوح: ألا يبقى على عمله أثراً من المعصية سراً وجهراً، وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً»[2].

وقال التهانوي: «التوبة النصوح -وهي من أعمال القلب- تعني تنزيه القلب عن الذنوب، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال ولا ترد في خاطره أصلاً»[3].

الخطوة الثامنة: التحلي بالعفو والصفح، فيعلم نفسه ويوطنها على أن تتحلى بصفتي العفو والصفح؛ لأن ذلك يجلب مغفرة الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾[النور:٢٢]، قال السعدي: «إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك»[4].

الخطوة التاسعة: ملازمة الاستغفار والذكر والإكثار منهما

فيكثر منهما، ويداوم عليهما، ويجعل منهما الأنيس والرفيق؛ لأنهما من موجبات الرحمة وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾[آل عمران:١٣٥-١٣٦]

وليعلم أن الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العباد، وفيها يتجرون، وإليها دائما يترددون، وهو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم

---

[1] - مدارج السالكين ٣٠٩/١ ، ٣١٠.

[2] - التعريفات ٩٥/١، ٩٦.

[3] - نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم، ٤/ ١٢٧٠.

٤- تفسير السعدي، ص٥٦٥.

انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب، وبه يستدفعون من الله تعالى الآفات، ويستكشفون به منه الكربات، وتهون عليهم به المصيبات إذا أظلهم البلاء، فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩١]، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها، فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لَقيتُ إبْراهيمَ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِي، فقال: يا محمَّد، أَقْرِئ أمّتَك مني السّلام، وأخبرهم أنَّ الجَنَّة طيِّبَةُ التُّرْبَة، عَذْبَة الماء، وأنَّها قِيعانٌ، وأنَّ غِراسَها سُبحانَ الله، والحَمْدُ لِله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر"[1]، وعن أبي موسى ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ"[2]، وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً، وإذا اجتمع في ذكره قلبه ولسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء، وبه يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان، والذكر روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه.

الخطوة العاشرة: ملازمة الدعاء والإكثار منه

إن الدعاء من موجبات الرحمة وغفران الذنوب فعلى المذنب والعاصي الحرص عليه وملازمته والإكثار منه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، وكان الرسول ﷺ يكثر من الدعاء بـــ: "يَا مُقَلِّبَ القُلُوب

---

[1]- أخرجه الترمذي، ٥/٥١٠ برقم: ٣٤٦٢، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ٢/١٠٩ برقم: ١٥٥٠، و السلسلة الصحيحة، ١/٢١٤ برقم: ١٠٥.

[2]- أخرجه البخاري، ٥/٢٣٥٣ برقم: ٦٠٤٤.

ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"[1]، فالدعاء هو دواء من أعظم الأدوية وأنفعها لعلاج لكل بلاء، فبه سرعة الفرج وتفريج الكرب، وإلقاء الهم على الرب لحسن الظن بالقرب، وهو سلاح يتقى به العدو وسوء القضاء، ويجلب المصالح ويدفع المفاسد، ويشغل العبد بذنبه وعيبه عن عيب غيره، ومداومة الشعور بالضعف والحاجة، فلا يزال يدعو حتى ينال حاجته، ويعد من أجل أنواع العبادة، فيقصد لذاته كما يقصد لقضاء الحاجة ولدفع المضرة، ويدعو المسلم إلى التعرف على الآداب الشرعية، ويشعر المسلم بأنه في معية الحق دوماً[2]، فليتوجه كل العباد بأكفهم إلى السماء يدعون خالقهم، وعلى وجه الخصوص العصاة الذين أسرتهم المعاصي والذنوب، ليرفعوا الأكف إلى خالقها وبارئها الذي يسمع الدعاء ويكشف البلاء، فإن الله إذا شاهد صدقهم ودموعهم وتضرعهم، فسيعينهم ويمنحهم القوة على تركها.

اعتراض: دعوت الله تعالى فلم يتغير من حالي شيئا

الجواب: هذه شبهة تعرض كثيراً للعصاة، وحتى غيرهم،إذا قيل له: إذا أردت قضاء حوائجك فعليك بالدعاء، فيحتج بها، ويجاب عنها بما يلي:

أولاً: يقول ابن القيم: «والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعداً قوياً، والمانع مفقودا، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر»[3].

وقال: «وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره؛ إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، والظلم، ورين الذنوب، على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها، كما في صحيح الحاكم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ"**[4]، فهذا دواؤنا نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ**

١- أخرجه الترمذي، ٤/٤٤٨رقم:٢١٤٠، وأحمد، ١١٢/٣ رقم: ١٢١٢٨، صححه الألباني في صحيح الترمذي، ١٧١/٣ رقم:٢٧٩٢.

٢- موسوعة نضرة النعيم، ٥/ ١٩٤٤.

٣- الجواب الكافي ص٨.

٤- أخرجه الترمذي، ٥/٥١٧ برقم: ٣٤٧٩، قال الألباني: «حسن لغيره» صحيح الترغيب والترهيب، ١٣٣/٢ برقم: ١٦٥٣.

الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون:٥١]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ!"[١]، وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم، ولن تزدادوا مني إلا بعدا[٢]، وقال أبو ذر: «يكفى من الدعاء البر ما يكفى الطعام من الملح»[٣].

ثانياً: بأن الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض، وله مع البلاء ثلاث مقامات: فإما أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه، أو أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً، أو أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه[٤].

ثالثاً: من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر[٥]، ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله، وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"[٦]، في رواية: "لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الاِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ"[٧].

رابعاً: حتى يكون الدواء نافعاً والبلسم شافياً، فعلى الداعي أن يتقيد بالإرشادات النبوية والتي هي من آداب الدعاء ومنها: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة وليلة القدر من السنة، ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل، وأن يغتنم الأحوال

١- أخرجه مسلم، ٧٠٣/٢ برقم: ١٠١٥.

٢- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٥٤/٢ برقم: ١١٥٧.

٣- أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٣٤/٦ برقم: ٢٩٢٧٢.

٤- الجواب الكافي، ص٤.

٥- قال الإمام النووي: «قال أهل اللغة يقال: حسر واستحسر إذا أعيا وانقطع عن الشيء، والمراد هنا أنه ينقطع عن الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[الأنبياء:١٩] أي: لا ينقطعون عنها، ففيه أنه ينبغي إدامة الدعاء ولا يستبطئ الإجابة» شرح صحيح مسلم ٥٢/١٧.

٦- أخرجه البخاري، ٢٣٣٥/٥، برقم: ٥٩٨١، ومسلم، ٢٠٩٥/٤ برقم: ٢٧٣٥.

٧- أخرجه مسلم، ٢٠٩٦/٤ برقم: ٢٧٣٥.

الشريفة كزحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وبين الأذان والإقامة، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، وحالة السجود، وخلف الصلوات، وعند إفطار الصائم، وفي السفر، ويرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها، وأن يدعو مستقبل القبلة، رافعاً يديه، وخافضاً صوته بين المخافتة والجهر، وأن لا يتكلف السجع في الدعاء؛ فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه، والسجع المذموم هو المتكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة، وأن يكون الدعاء بتضرع وخشوع ورغبة ورهبة وإخلاص لله تعالى وإقبال عليه، وأن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه، ويلح في الدعاء ويكرره، وأن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل والتوسل إليه بأسمائه وصفاته والصلاة على رسوله ﷺ، والتوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة، وهو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة، قال سفيان الثوري: «بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً؛ حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم»[1].

خامساً: إذا دعوت الله تعالى، والتزمت بأدب الدعاء، و لم تستعجل، و لم تأثم فيه، فاعلم أن الدعاء له أحوال ثلاثة: فإما أن يستجاب فترى أثر الإجابة، وإما أن يدفع به عنك من البلايا والمصائب ما لم يكن لك على بال، وإما أن يدخره الله تعالى لك إلى يوم القيامة، فهو خير على كل حال، فعن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ"**[2].

1- انظر: إحياء علوم الدين، ١/٣٠٤- ٣٠٧، وموسوعة نضرة النعيم، ٥/ ١٩٠٤.

2- أخرجه أحمد في المسند، ٣/١٨ برقم: ١١١٤٩، و الحاكم في المستدرك،١/٦٧٠ برقم: ١٨١٦، قال الإمام الألباني: «حسن صحيح»، صحيح الترغيب والترهيب، ٢/١٢٨، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده جيد».

اعتراض آخر:

المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع به، وإن لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله؟

الجواب: بأن هذه الشبهة قد أثرت في طائفة من الناس فتركت الدعاء، وقالت: لا فائدة فيه، ويجاب عن هذه الشبهة بالآتي:

أولاً: بأن هذا القول من فرط الجهل والضلال والتناقض، وإلا للزم على ذلك ووجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل وشربت أو لم تشرب، وإن لم يقدرا لك لم يقعا أكلت أو لم تأكل وشربت أو لم تشرب، وإن كان الولد قدر لك فلابد منه وطأت زوجتك أو لم تطأها، وإن لم يقدر لم يكن، وعليه فلا حاجة إلى الزواج، وإذا كان أجلك قد قدر وقته وزمنه فلا يضرك أن تسقط من رأس جبل، وهلم جراً فهل يقول هذا عاقل؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فيكون الحيوانات بهذا أعقل وأفهم.

ثانياً: هذا المقدور قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجرداً عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتى أتي العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم، وكان عمر ﷺ يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنده، وكان يقول للصحابة: «لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء»[الجواب الكافي ص٩]، وكان يقول: «إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء؛ فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه»[مجموع الفتاوى، ٨/١٩٣]، فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من لم يسأل الله يغضب عليه"**[أخرجه الترمذي، ٥/٤٥٦ برقم: ٣٣٧٣، قال الإمام الألباني: «حسن» صحيح سنن الترمذي، ٣/١٣٨ برقم: ٢٦٨٦] وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه.

ثالثاً: لقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه، وقد رتب الله ﷻ حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع، وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال، ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلاً، بل الفقيه هو الذي يدفع القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك؛ فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر فيأكلون ويشربون ويسعون في طلب الأرزاق، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة والدعاء[انظر: الجواب الكافي ص٨-١١.]، ويدفع أقدار الدنيا بقدر الدعاء، وهذا هو سبيل العقلاء والصلحاء، والواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه كما يدل على ذلك مثله في سائر الأسباب، **وقد أخبر الله ﷻ به**، ومن ذلك ما أخبر به في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[الصافات:٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل:٦٢]، وقوله تعالى عن زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد –أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي

الخطوة الحادية عشرة: الثقة برحمة الله تعالى وسعة عفوه

فيعلم أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:٥٤]، وهو ﷻ يغفر الذنوب جميعا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، وقال ﷻ: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧]، ويذكرنا ربنا بهذه الرحمة الواسعة في كل صلاة، بل في كل ركعة مرتين: الأولى في البسملة، والثانية في قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:١]، فلا يقنط وييأس من رحمه الله تعالى القائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، قال السعدي: «أي: لا تيأسوا منها فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل

المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ"، قال: فحمد الله عمر ثم انصرف[أخرجه البخاري، ٢١٦٣/٥ برقم: ٥٣٩٧، ومسلم، ١٧٤٠/٤ برقم: ٢٢١٩]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز! فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلةً، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا"[أخرجه البخاري ١٢٧٨/٣ برقم: ٣٢٧٨، ومسلم، ٢٠٩٩/٤ برقم: ٢٧٤٣].

يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده واعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، و لم تزل آثارهما سارية في الوجود مالئة للموجود تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، **ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب** إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها»[1].

الخطوة الثانية عشرة: جهاد الشيطان واتخاذه عدوا

إن على المسلم بعد إقلاعه عن الذنب وتوبته واستغفاره أن يحصن مواقعه حتى لا يخترقها عدوه اللدود وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾[الإسراء:٥٣]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[فاطر:٦]، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس:٦٠-٦١]، وعليه أن يعلم بأن هذا العدو اللعين يتخذ من الحيل والأساليب ما يجعله يرتدي ثياب الصديق، فيبذل الكثير من الوعود الكاذبة والأماني الخادعة، ويدعو أصحابه ليكونوا من أصحاب السعير، ثم لا يغني عنهم فتيلاً عند ما يقضي الحق بين العباد، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[إبراهيم: ٢٢]، فليعلم العبد أن الشيطان يريد إضلاله، وسيفعل كل ما يستطيع لأجل أن يعيده إلى تلك الذنوب فاستعذ بالله منه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف:٢٠٠].

قال ابن القيم: «وعلم- أي الله تبارك وتعالى- عباده كيفية هذا الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠] ولا يتم هذا أمر الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم الصبر إلا

[1]- تفسير السعدي، ص٧٢٧.

بمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلى مكانها؛ فيصادف العدو والثغر خالياً فيدخل منها، فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم، وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان، وإجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر»[1].

الخطوة الثالثة عشرة: الابتعاد عن قرناء السوء

إن الإنسان لا يجني من وراء قرناء السوء إلا الخسران، فإن المرء مفطور على التأثر والتأثير؛ لأنه اجتماعي بالطبع وهو كما يقال ابن بيئته، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ إذ يقول ﷺ: **"مثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**[2]**، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"**[3]، فالحديث فيه إرشاد إلى مجالسة من تنتفع بمجالسته في دينك من علم تستفيده أو عمل أو حسن خلق يكون فيه، فإن الإنسان إذا جالس من تذكره مجالسته الآخرة فلابد أن ينال منه بقدر ما يوفقه الله بذلك، وإذا كان الجليس له هذا التعري، فاتخذ جليسك الذكر والقرآن وأهل الخير والصلاح، ولا تصحب الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود لو أنك مثله، وإياك ومجالسة الأشرار؛ فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري، وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنظر إليه، والنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه، فإن من دامت رؤيته للمسرور سر، وللمحزون حزن، وليس ذلك في الإنسان فقط بل في الحيوان والنبات، فالجمل الصعب يصير ذلولا بمقاربة الجمل الذلول، والذلول قد ينقلب صعباً بمقارنة الصعاب، والريحانة الغضة تذبل بمجاورة الذابلة، ولهذا يلتقط أهل الفلاحة الرمم عن الزرع لئلا تفسدها، ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها، فقد قيل: سمي الإنسان بالإنسان؛ لأنه يأنس بما يراه خيراً أو شراً[4].

١- الجواب الكافي ٦٦/١.

٢- يحذيك: يعطيك، شرح النووي لصحيح مسلم ١٧٨/١٦.

٣- أخرجه البخاري ٧٤١/٢ برقم: ١٩٩٥، ومسلم ٤/ ٢٠٢٦ برقم: ٢٦٢٨.

٤- فيض القدير ٥٠٧/٥.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ "[1]، قال المناوي: «أي: فليتأمل أحدكم بعين بصيرته إلى امرئ يريد صداقته فمن رضي دينه وخلقه صادقه وإلا تجنبه»[2].

واحـذر معاشـرة الـدنيء فإنها تعـدي كمـا يعـدي الصـحيح الأجـرب
يلقـاك يحلـف أنـه بـك واثـق وإذا تـوارى عنـك فهـو العقـرب[3]

فليلزم مجالسة الذين ينتفع برؤيتهم قبل كلامهم، ومجالسة التائبين من تلك المعصية ليخبروه بكيفية تركهم لها؛ لأن هؤلاء التائبين قد سبق أن فعلوا تلك المعاصي وسبقوك لها وعرفوا نهاياتها، فإن صحبتهم من أسباب الاستقامة والثبات على التوبة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]، فعلى ذلك التائب أن يفتش عن هؤلاء الشباب، فيعبد الله معهم، ويتعاون معهم على فعل الخيرات وطلب العلم النافع[4]، ولكن لابد أن يكونوا من أهل التوبة النصوح الصادقة.

الخطوة الرابعة عشرة: التخلص من كل الأسباب والأدوات والوسائل وهجر الأماكن، فلابد أن يسارع إلى نبذ كل الأسباب والأدوات والوسائل المؤدية إلى الوقوع في المعصية أو المهيجة لها أو المسببة لإثارتها من صور ومجلات وأفلام وأشرطة ورفقة سوء، والابتعاد عن أماكنها وتغييرها، إذ كيف يرجى للعاصي أن يترك المعصية ويتوب منها، أو يرجى ممن تاب من معصية أن يثبت على توبته وهو يذهب إلى أماكنها ويسلك مسالكها ويعمل بأسبابها ويحتفظ بوسائلها وطرقها المؤدية إليها، ويصاحب أهل هذه المعصية الذين يزينون المعاصي له ويرغبونه فيها، ويسهلونها له.

إذا أردت التوبة من المعصية والمحافظة على توبتك فاهجر وسائل وأسباب وأماكن المعصية تماماً، ولا تعد إليها مرة أخرى أو تحتفظ بشيء منها، بل بادر إلى التخلص منها، بل لا تمر بها، وإذا مررت بها فاذكر نعمة الله عليك، وقل الحمد لله الذي عافاني، فالغير ما زال يسير في طريق الهوى، لا يستطيع منه فكاكا، بل ابك على معاصيك، وتذكر قوله ﷺ لما مر بالحجر-ديار ثمود قوم صالح عليه

١- أخرجه أبو داود ٢/٦٧٥ برقم: ٤٨٣٣، والترمذي ٤/ ٥٨٩ برقم: ٢٣٧٨، وأحمد٢/٣٠٣ برقم: ٨٠١٥، حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٥٩٧ برقم: ٩٢٧.

٢- فيض القدير ٤/٥٢.

٣- معجم الأدباء ٣/٤٢٠.

٤- انظر: تحقيق علي بن نايف الشحود لأسباب رفع العقوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٢٤.

الصلاة والسلام-: "لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ ما أَصَابَهُمْ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حتى أَجَازَ الْوَادِيَ"[١]، وفي رواية: "لَا تَدْخُلُوا على هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَهُمْ"[٢].

فالذي يريد النجاة لا يعمل الأسباب المؤدية إلى المعاصي أو المثيرة والمهيجة لها، ولا يحتفظ أو يقتني أي وسيلة من وسائلها أو يحتفظ بها، ولا يسكن في أرض موبوءة فإن ميكروب المرض لا بد أن يصيبه، فكيف لتائب من الربا أن تحسن توبته وهو لا يكف عن تتبع أخبار الفائدة ومصادقة المرابين وزيارتهم في أعمالهم، وكيف لتائب من السرقة أن يستمر على التوبة وهو لا يجالس إلا اللصوص، فلا ينهاهم ولا يفارق مجالسهم[٣]، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ، فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ"، قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره"[٤]، قال السعدي في تفسير آيات مسجد الضرار وهو يذكر فوائد الآيات: «ومنها النهي عن الصلاة في أماكن المعصية والبعد عنها وعن قربها، ومنها أن المعصية تؤثر في البقاع كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار ونُهي عن القيام فيه»[٥]، وفي رسائل البناء وهو يذكر واجبات الأخ العامل: «أن تبتعد عن أقران السوء وأصدقاء الفساد وأماكن المعصية والإثم، وأن تحارب أماكن اللهو فضلاً عن أن تقربها، وأن تبتعد عن مظاهر الترف والرخاوة جميعاً»[٦].

١- أخرجه البخاري، ٤/١٦٠٩ برقم: ٤١٥٧.

٢- أخرجه البخاري، ٤/١٦٠٩ برقم: ٤١٥٨.

٣- سلسلة الآداب، ١٢/٥١.

٤- أخرجه البخاري، ٣/١٢٨٠ برقم: ٣٢٨٣، ومسلم، ٤/٢١١٨ برقم: ٢٧٦٦.

٥- تفسير السعدي ص٣٥٢.

٦- رسائل الإمام حسن البنا، ١/ ٣٨٢.

قال ابن أبي الدنيا: «حدثنا أبو بكر قال: قال محمد بن الحسين: حدثني محمد بن أبي عبيد قال: قرأت في كتاب لأبي عبد الرحمن بن حماد بن عبد ربه أن رجلاً وعظ رجلاً في منامه فقال: عطل أماكن المعصية من نفسك، وأعمرها بطاعته وبلوغ محبته في هذا الليل والنهار، وتوق أن تنقضي عنك الأيام وأنت صفر من الخير، مغبون بالأيام، فتخسر في زمرة الخاسرين»[١].

فلا بد أن يبتعد المرء عن أسباب ومقويات المعاصي، فإن كل معصية لها سبب يدفع لها ويقويها، ويساهم في الاستمرار فيها، ومن أصول العلاج البعد عن كل سبب يقوي المرض.

- **وجوب الابتعاد**

إن التخلص من كل الأسباب والأدوات والوسائل المؤدية إلى الوقوع في المعصية أو المهيجة لها أو المسببة لإثارتها من صور ومجلات وأفلام وأشرطة ورفقة سوء، والابتعاد عن أماكنها وتغييرها ليس أمراً ضرورياً فحسب بل واجب شرعي؛ لما يلي:

١- من قواعد وكليات الشريعة الإسلامية الغراء قاعدة: ما أفضى إلى مُحرّم فهو مُحرّم، وقاعدة: سدّ الذرائع الْمُفْضِية والْمُؤدِّية إلى ما حرم الله تعالى، ولذلك جاء الإسلام بِغضّ البصر؛ لِكون إطلاقه مُفضياً إلى ما حرم الله، وجاء النهي عن الخلوة بالأجنبية، وكذلك النهي عن الخضوع بالقول؛ لما يؤديه ذلك من وقوع الفاحشة أو حصول مُقدِّماتها[٢].

٢- هذه الأسباب والوسائل والأماكن باب من أبواب الشيطان، وخُطوة في طريق الزلل والتدرج في خطوات الشيطان، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور:٢١] أي: طرقه ووساوسه التي يوقع بها ضحاياه في جميع أنواع المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى أن بين الحكم وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضي والداعي لتركه فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره النصوص والعقول السليمة ولا تعرفه، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عن هذه الخطوات التي يستدرجهم الشيطان بها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها[٣].

١- المنامات ١/١٠٦.

٢- الفتاوى العامة للشيخ عبد الرحمن السحيم، ١/ ٢٣٧.

٣- تفسير السعدي، ١/٥٦٤.

٣- ما يترتب على ممارسة هذه الأسباب والاحتفاظ بالوسائل أو مجالسة أهل المعاصي وارتياد أماكنها من الدخول في مكايد الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فعن علي بن الحسين في حديث صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا"[١]، وفي رواية: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ- شَيْئًا"[٢]، قال النووي: «وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان فإنه يجرى من الإنسان مجرى الدم فيتأهب الإنسان للاحتراز من وساوسه وشره»[٣]، قال القاضي عياض وغيره: «قيل: هو على ظاهره وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان مجاري دمه، وقيل: هو على الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه، وقيل: يلقى وسوسته في مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب»[٤]، وسواء كان الحديث على الحقيقة أو المجاز، فإن هذه الأسباب والوسائل والأماكن وريد من أخطر الأوردة التي يجري فيها الشيطان، ويسرع في تزيينها والإيقاع عن طريقها، فيجتمع على أصحابها منافذ كثيرة خفية خطيرة ينفذ إليهم الشيطان من خلالها للإهلاك.

٤- هذه الأسباب والوسائل والأماكن معول هدم للمجتمعات الرفيعة، وزلزال يخسف بحصونها المنيعة، فيدمر فيها الخير والطاعة، ويلبس أهلها لباس الذل والصغار، بعدما كانوا في عز ووقار.

٥- أسباب المعاصي ووسائلها وأماكنها تعتبر من مواطن الشبهات والريبة، وبالتالي فهي تؤدي إلى الحرام وتثير الظنون السيئة حول من يمارسها ويقدم عليها أو يحتفظ بها، فلزم الابتعاد عن هذه المواطن، والنبي ﷺ يقول: "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالا يَرِيبُكَ"[٥]، ويقول: "فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ"[٦]، يقول النووي: «يحتمل وجهين: أحدهما: أنه من كثرة تعاطيه الشبهات يصادف الحرام وإن لم يتعمده وقد يأثم بذلك إذا نسب إلى تقصير، والثاني: أنه يعتاد التساهل ويتمرن عليه ويجسر على شبهة ثم شبهه أغلظ منها ثم أخرى أغلظ وهكذا حتى يقع في الحرام عمداً،وهذا نحو قول السلف: المعاصي بريد الكفر أي: تسوق إليه عافانا

١- رواه البخاري، ٢٢٩٦/٥ برقم: ٥٨٦٥.

٢- رواه مسلم، ١٧١٢/٤ برقم: ٢١٧٥.

٣- شرح صحيح مسلم، ١٥٧/١٤.

٤- نفس المصدر.

٥ــ رواه الترمذي، ٦٦٨/٤ برقم٢٥١٨، والنسائي، ٣٢٧/٨ برقم٥٧١١، والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب،٧١/٣ برقم ٢٩٣٠، وصحيح سنن الترمذي ٣٠٩/٢ برقم٢٠٤٥.

٦ــ رواه البخاري، ١ /٢٨ برقم٥٢، و٧٢٣/٢ برقم١٩٤٦، ومسلم، ٣ /١٢١٩ برقم١٥٩٩.

الله تعالى من الشر»[1]، والوجهان المذكوران متحققان في هذه الوسائل والأدوات والأسباب والأماكن، وهذا الحديث صار أصلاً لقاعدة أصولية عند الشافعية هي: (أن الحريم له حكم ما هو حريم له)، قال الزركشي: «الحريم يدخل في الواجب والحرام والمكروه، وكل محرم له حريم يحيط به، والحريم هو المحيط بالحرام، كالفخذين فإنهما حريم للعورة الكبرى وحريم الواجب مالا يتم الواجب إلا به»[2]

٦- الاحتفاظ بوسائل المعصية، وسلوك الأسباب المؤدية إليها، وارتياد أماكنها، من تزيين الشيطان وتلبيسه على العبد؛ ليسهل عليه إغواء العبد وإضلاله، وربما يزين للبعض ويوهمه أن المصلحة تقتضي الاحتفاظ بشيء من وسائل المعصية ليستفاد منها في غيرها، فقد يوهمه بوجود مصلحة، ولا مصلحة في ذلك بل هذه مصلحة موهومة مُتخَيّلة وليست مصلحة حقيقة؛ لأن المصلحة الحقيقة هي التي توافق أمر الشرع وهذه ليست كذلك، ولو سلمنا بوجود المصلحة فإن درء ودفع المفاسد يُقدّم على جلب المصالح، ولذا حُرمت الخمر مع ما فيها من منافع، إلا أن ما فيها من الإثم أكبر من منافعها، وكذلك الأمر بالنسبة للميسر، قال ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩]، وكم أدّت وتؤدي تلك الصور والمجلات والأفلام والأشرطة والسيديهات والقنوات والجلوس في المقاهي وعلى مواقع الإنترانت الفاسدة إلى الوقوع في الحرام، وأفضت إليه، وما أفضى إلى حرام فهو حرام، قال ميمون بن مهران: «ثلاث لا تبلون نفسك بهن: لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله»[3].

٧- إن حسن القصد لا يُبرر العمل أو يجعل ارتكابه سائغا، ولذا فإن من المتعين إغلاق هذا الباب، والتخلص من كل أسباب ووسائل المنكر المؤدية إلى الوقوع في المعصية أو المهيجة لها أو المسببة لإثارتها[4]، قال الشيخ المنجد: «واعلم أنه لا يجوز للمسلم أن يوجد في مكان يُعصى الله تعالى فيه إلا إلا مضطراً أو مكرهاً على ذلك، والواجب عليه أن ينكر ذلك المنكر ويغيره ويزيله، فإن لم يستطع وجب عليه مغادرة المكان، فالأصل في المسلم أن يهجر أماكن المعصية ويبتعد عنها لا أن يساعد أهلها على معصية الله، فالبقاء في مثل هذه الأماكن يتنافى مع الأمر للمسلم بتغيير المنكر حين يراه، ويتنافى مع الأمر بهجر أماكن السوء والمعصية»[5].

١- شرح صحيح مسلم، ٢٩/١١.

٢- الأشباه والنظائر للسيوطي، ١٢٥/١.

٣- سير أعلام النبلاء، ٧٧/٥.

٤- الفتاوى العامة للشيخ عبد الرحمن السحيم، ١/ ١٤٢.

٥- فتاوى الشيخ محمد صالح المنجد، ٢/.

عن عمران بن حصين ﷺ قال: كنت مع نبي الله ﷺ في مسيرٍ له فَأَدْلَجْنَا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، قال: فكان أول من استيقظ منا أبو بكر وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ، ثم استيقظ عمر فقام عند نبي الله ﷺ، فجعل يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ رسول الله ﷺ فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: **"ارْتَحِلُوا فَسَارَ بنَا حتى إذا ابْيَضَّتْ الشَّمْسُ نَزَلَ فَصَلَّى بنَا الْغَدَاةَ"**، وفي رواية: **"فلما اسْتَيْقَظَ شَكَوْا إليه الذي أَصَابَهُمْ قال لَا ضَيْرَ أو لَا يَضِيرُ ارْتَحِلُوا فَارْتَحَلَ فَسَارَ غير بَعِيدٍ ثُمَّ نَزَلَ فَدَعَا بِالْوَضُوءِ فَتَوَضَّأَ وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى بِالنَّاسِ"**[1]، وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: **"عَرَّسْنَا مع نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فلم نَسْتَيْقِظْ حتى طَلَعَتْ الشَّمْسُ، فقال النبي ﷺ: لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْسِ رَاحِلَتِه؛ فإن هذا مَنْزِلٌ حَضَرَنَا فيه الشَّيْطَانُ، قال: فَفَعَلْنَا ثُمَّ دَعَا بِالْمَاءِ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، وقال يَعْقُوبُ ثُمَّ صلى سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَصَلَّى الْغَدَاةَ"**[2]، قال النووي: «فيه دليل على استحباب اجتناب مواضع الشيطان وهو أظهر المعنيين في النهي عن الصلاة في الحمام»[3].

- **الحذر من الثقة العمياء بالنفس**

وهذه الثقة العمياء نوع من أنواع غش النفس وخيانتها وعدم النصح لها، فتراه يركب أسباب المعاصي، ويرتاد أماكنها، ويحتفظ بوسائلها، ثم يقول: أنا أثق بنفسي، وهذا غرور واستدراج من الشيطان، وجهل بحقيقة النفس، فالمسلم صاحب الدين والمعرفة بحقيقة النفس البشرية ينبغي له أن يتهم نفسه في مثل هذه المواطن؛ لأنها مواطن فتنة، مع العلم بأنه لا يجوز للمسلم أن يمتحن إيمانه في مواطن الفتن؛ لأنها مظنة الزيغ، ولذا قال النبي ﷺ: **"مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهْوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ لِمَا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ"**[4]، هكذا قال، ومعنى **"فَلْيَنْأَ"** أي: فليبعد[5].

- **الحذر من الخيانة**

ليعلم كل أب وأم وكل زوج وزوجة أن الله ﷻ استودعهم أبناءهم وبناتهم أمانة واسترعاهم عليهم، فكل واحد منا راعٍ في أهله ومسئول عنهم أمام الله تعالى، فعن عبد الله بن عمر رضي الله

١- أخرجه البخاري، ١/١٣٠ برقم: ٣٣٧، ومسلم، ١/٤٧٤ برقم: ٦٨٢.

٢- أخرجه مسلم، ١/٤٧١ برقم: ٦٨٠.

٣- شرح صحيح مسلم، ٥/١٨٣.

٤- رواه أبو داود، ٢/٥١٩ برقم: ٤٣١٩، وأحمد ٤/٤٤١ برقم: ١٩٩٨٢، قال الألباني: «صحيح» انظر: حديث رقم:٦٣٠١ في صحيح الجامع، وانظر:الجامع الصغير وزيادته ١/١١٢٥ برقم: ١١٢٤٧.

٥- عون المعبود، ١١/٢٩٧.

عنهما قال: قال النبي ﷺ: "أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْه، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[1]، فليحذر كل واحد منا من خيانة الأمانة، وغش الرعية؛ لأن من غش رعيته حرم الله عليه الجنة، قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"[2]، وإن من أعظم الغش للرعية والخيانة لها أن يترك الزوج زوجة أو الأب ابنه أو بنته يهيم في أوحال الرذيلة من دون أن يحيطه بالنصح وينهاه عن المنكر والشر ورسول الله ﷺ: يقول: "مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ"[3].

يقول ربنا جل في علاه في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦]، فهذه الآية تدل على أنه يجب على الإنسان أن يأمر أهله بالمعروف والخير، وينهاهم عن المنكر والشر، ويعلمهم الدين وما لا يستغني عنه من الآداب؛ ليقيهم بذلك من النار[4].

قال ابن كثير: «أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملا؛ فتأكلهم النار يوم القيامة»[5]، وقال الواحدي: «أي: خذوا أنفسكم وأهليكم بما يقرب من الله تعالى، وجنبوا أنفسكم وأهليكم المعاصي»[6]، فيجب نصحهم وتوجيههم ومراقبتهم، فترك هذه الرعية من دون تعهد ونصح ونصح وأمر ونهي ورقابة من –غير تجسس أو شك لا يقوم على دليل– من خيانة الرعية وغشها.

الخطوة الخامسة عشرة: مجاهدة النفس ومقاومة المقدمات

المجاهدة مفاعلة من الجهد أي الطاقة، فإن الإنسان يجاهد نفسه باستعمالها فيما ينفعها حالاً ومآلاً، وهي تجاهده بما تركن إليه[7]، يقول ابن حجر: «والمراد بالمجاهدة كف النفس عن إرادتها من الشغل بغير العبادة، وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

١– رواه البخاري، ٩/٧٧ برقم: ٧١٣٨، ومسلم، ٣/١٤٥٩ رقم: ١٨٢٩.

٢– رواه مسلم، ١/١٢٥ برقم: ١٤٢.

٣– رواه البخاري، ٦/٢٦١٤ رقم: ٦٧٣١.

٤– أضواء البيان، ١/٤٦٦، وتفسير البغوي، ٤/٣٦٧، وأحكام القرآن للجصاص، ٥/ ٣٦٤ و٣٦٥.

٥– تفسير ابن كثير، ٣/١٢٧.

٦– تفسير الواحدي، ٢/١١١٣.

٧– انظر: موسوعة نضرة النعيم، ٨/٣٣٠٥، نقلاً عن دليل الفالحين، ١/٣٠٢.

﴿مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[النازعات:٤٠]، ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة؛ لتتوفر لها في الآخرة، قلت: ولئلا يعتاد الإكثار فيألفه فيجره إلى الشبهات، فلا يأمن أن يقع في الحرام»[١].

إن ترك المعصية لا يكون بين يوم وليلة، بل ذلك يحتاج إلى المجاهدة والصبر والمصابرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩]، وقال رسول الله ﷺ: "الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ "[٢].

أما كيفيتها: فعن أبي عمرو بن بجيد قال: «من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه»[٣]، وقال القشيري: «أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها، وللنفس صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك»[٤]، وقال بعض الأئمة: «جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرب، والشيطان هو المعين لها على ذلك ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين، فالأول الجهاد الباطن، والثاني الجهاد الظاهر، وجهاد النفس أربع مراتب: حملها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمه.

وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يلقى إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهى عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمام ذلك من المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله؛ فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات»[٥]، ويقول ابن القيم: «فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها عمله شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

١- فتح الباري، ١١/٣٣٧، ٣٣٨.

٢- أخرجه الترمذي ٤/١٦٥ برقم: ١٦٢١، وأحمد ٦/٢١ برقم: ٢٤٠٠٤، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/٣١ برقم: ١٢١٨، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

٣- فتح الباري، ١١/ ٣٣٨.

٤- فتح الباري، ١١/ ٣٣٨.

٥- فتح الباري، ١١/ ٣٣٨.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين؛ فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات»[1].

قال الغزالي: «قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب، وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه[يريد طريق الشرع]... وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله، والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحة من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحه فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه، ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة، وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت»[2].

إن جهاد النفس يوصل إلى الأخلاق الحميدة، فهو أساس كبير في تهيؤ الإنسان للخلافة في الأرض، وحتى تطهر تلك النفس بالمجاهدة فإن لذلك أسبابه ودواعيه، والذي يطهر النفس: العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية، كما أن الذي يطهر به البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية، قال الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]، فسمى العلم والعبادة حياة من حيث إن النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأبد، كما قال في وصف الماء: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء:٣٠].

وطهارة النفس تتحقق بإصلاح الفكر بالتعلم حتى يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الفعال، وإصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس بالجود، والمواساة المحمودة بقدر الطاقة، وإصلاح الحمية بإسلاسها حتى يحصل التحكم وهو كف النفس عن

---

[1]- زاد المعاد ١٠/٣.

٢- إحياء علوم الدين، ٦٧/٣، ٦٩.

قضاء وطر الخوف وعن الحرص المذمومين، وبإصلاح هذه القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان»[1].

إن المجاهدة فيها إخضاع النفس والهوى لطاعة الله عز وجل، وإبعاد النفس عن الشهوات، وتعويدها الصبر عند الشدائد على الطاعات وعن المعاصي، وتعين على محاسبتها وتأديبها، وصد للقلب عن التمني والتشهي، وقمع الشيطان ووساوسه، ومن جاهد نفسه وأدبها فقد سما بين أقرانه وفي مجتمعه، وتملك ناصية الخير، ويصبح حسن الأخلاق، والمجاهدة تحقق إنكار الذات، وتصفي الجماعة من الأثرة الضارة بها وبالمجتمع، وهي طريق قويم يوصل إلى رضوان الله تعالى والجنة[2].

الخطوة السادسة عشرة: محاسبة النفس

عليه أن يجلس مع النفس لمحاسبتها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحشر:١٨]، قبل العمل وبعده، فلا يقدم على عمل حتى يتبين له رجحان فعله على تركه، فإن المحاسبة دليل على الخوف من الله، وصلاح الإنسان، وبعده عن مزالق الشيطان، وتثمر محبة الله ورضوانه، وتحقق السعادة في الدارين، قال الحسن: «رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن أحداً لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله عز وجل مضى، وإن كان لغير الله أمسك»[3]، ومحاسبتها بعد العمل إذا قصر فيه بحق الله تعالى؛ وحق الله تعالى في العمل والطاعة ستة أمور وهي: الإخلاص فيه، والنصيحة لله فيه[4]، ومتابعة الرسول، وحصول المراقبة فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقها، وهل أتى بها في هذه الطاعة، وأن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله، وأن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به[5].

١- انظر: موسوعة نظرة النعيم، ٨/ ٣٣٠٧ نقلاً عن الذريعة للراغب، ٣٨، ٤٨.

٢- موسوعة نظرة النعيم، ٨/ ٣٣١٦.

٣- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٥/٤٥٨ برقم: ٧٢٧٩.

٤- قال الإمام النووي: «قالوا: أما النصيحة لله تعالى فمعناها منصرف إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة من أطاعه ومعادة من عصاه، وجهاد من كفر به، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة، والحث عليها والتلطف في جميع الناس أو من أمكن منهم عليها، قال الخطابي رحمه الله: وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه فالله تعالى غني عن نصح الناصح»، شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/٣٨.

٥- انظر: إغاثة اللهفان ١/٨١-٨٢، و موسوعة نظرة النعيم ٨/٣٣١٨- ٣٣٢٤

قال الغزالي: «أعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك»[1].

الخطوة السابعة عشرة: تقوية الصلة بالله

أن يجعل الصلة بالله ركناً أساسياً، ومكوناً رئيسياً في شخصيته ونفسيته وحياته، وأن يحذر العبد من مغالطة نفسه، وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة، فالحذر الحذر..

ويتم تقوية الصلة بالله تعالى بالإقبال على القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وذكر الله تعالى، وحضور مجالس العلم والخير، والدعاء، وذكر الموت، والدعوة إلى الله، ومجالسة أهل الصلاح، والتأمل في نعيم الجنة وعذاب النار، والنظر إلى مخلوقات الله، والبعد عن الكفار، وقيام الليل، وحفظ الجوارح، والتوبة والإنابة إلى الله عز وجل...

الخطوة الثامنة عشرة: معرفة تفاصيل أسباب الشر والخير

على العبد أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما شهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلةً مبينةً، ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما؛ فهما يريان العبد الخير والشر وأسبابهما حتى كأنه يعاين ذلك عياناً، ثم العلاج لكل ذلك، وبعد ذلك فإذا تأمل أخبار الأمم وأيام الله[2] في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك مع ما علمه من القرآن والسنة ورآه بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلم من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق، وأن

١- إحياء علوم الدين، ٤/٤٠٥.

٢- قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ﴾[إبراهيم:٥]، قال الشوكاني: «أي بوقائعه، قال ابن السكيت: العرب تقول الأيام في معنى الوقائع يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعها، وقال الزجاج: أي ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود، والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد»، فتح القدير، ٣/٩٤.

الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله، ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر[1].

فمن عرف الداء عرف الدواء، ولهذا تجد أكثر الناس وقاية من الأمراض الذين يعرفون أسبابها كالأطباء مثلاً، ولهذا جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قوله: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[2]، قال القاري: «أي: خشية أن يلحقني الشر نفسه أو بسببه، وهذا الطريق هو مختار الحكماء وكثير من الفضلاء، أن رعاية الاحتماء أولى في دفع الداء من استعمال الدواء، وأن التخلية مقدمة على التحلية»[3].

الخطوة التاسعة عشرة: طلب الهداية والبحث عنها

فالعبد بحاجة دائمة إلى أن يطلب الهداية من مولاه، ولهذا نجد أن الفاتحة في كل ركعة في الصلاة تذكرنا بطلب الهداية من الله وسؤالها منه تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الُمستَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦].

قال السعدي: «فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك»[4].

وليعلم العبد أن الهداية لا تأتيه، بل يلزمه أن يبحث عنها ويسعى لتحقيقها وتثبيتها في قلبه.

قال شيخ الإسلام: «وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى، طالب سائل، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله كما قال: **"يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ "**[5]، وكما كان النبي ﷺ يقول: **"اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفْتُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**[6].

الخطوة العشرون: ترك الصغائر

إن الذي يتساهل في ارتكاب الصغائر سيقوده ذلك إلى الوقوع في الكبائر، فالصغيرة على الرغم أنها لا تقدح في العدالة، ولا توجب فسوقاً إلا أن الإصرار عليها يكون كبيرة كما يقول أهل العلم، فإنه لا صغيرة مع إصرار[7].

١- الجواب الكافي، ص١١.

٢- جزء من حديث أخرجه البخاري، ١٣١٩/٣ برقم: ٣٤١١، ومسلم، ١٤٧٥/٣ برقم: ١٨٤٧.

٣- مرقاة المفاتيح، ٩/١٠.

٤- تفسير السعدي، ص٣٩.

٥- أخرجه مسلم، ١٩٩٤/٤ برقم: ٢٥٧٧.

٦- أخرجه مسلم، ٥٣٤/١ برقم: ٧٧٠.

٧- الفروق مع هوامشه، ١٤٤/٤.

قال العز بن عبد السلام في حد الإصرار: «هو أن تتكرر منه الصغيرة تكراراً يشعر بقلة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك... وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع بحيث يشعر مجموعها بما يشعر به أصغر الكبائر»[1].

خـــــل الـــــذنوب كبيرهـــــا وصـــــغيرها فهـــــو التقـــــى

وأصـــــنع كمـــــاش فـــــوق أر ض الشـــــوك يحـــــذر مـــــا يـــــرى

لا تحقـــــرن صـــــغيرة إن الجبـــــال مـــــن الحصـــــى

قال شيخ الإسلام: «فإن الزنا من الكبائر، وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش، فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه، ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل: أن لا يأتي كبيرة ولا يصر على صغيرة»[2].

- **الأسباب التي تكبر بها الصغيرة**

ذكر الإمام الغزالي أن الصغيرة تكبر بأسباب عدة منها:

١- **الإصرار والمواظبة**، ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها -لو تصور- ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

٢- استصغار الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في

---

[1]- شرح النووي على صحيح مسلم، ٨٧/٢.

٢- مجموع الفتاوى، ٢٩٣/١٥.

الغفلة، وقد جاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره[1]، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية، وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها.

٣- **السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة**، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه، ويقول المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته، وكيف غبنته في ماله، وكيف استحمقته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه، وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

٤- **التهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه**، ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله، وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[المجادلة:٨].

٥- **أن يأتي الذنب ويظهره** بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الحديث: "كُلُّ أَمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَاهرة أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْه"[2]، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار للمعصية جحود لهذه النعمة، وقال بعضهم لا تذنب؛ فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[التوبة:٦٧]، وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمه أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

---

[1]- أخرجه البخاري، ٥/٢٣٢٤برقم: ٥٩٤٩.

[2]- أخرجه البخاري، ٥/٢٢٥٤ برقم: ٥٧٢١، ومسلم، ٤/٢٢٩١ برقم: ٢٩٩٠.

٦- **أن يكون المذنب ممن يقتدى به** كالعالم، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه، قال الغزالي: «كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين، وتردده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعديه باللسان في المناظرة، وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يُتبع العالم عليها، فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماد متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وفي الخبر: **"من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا"**[1]... قال تعالى: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾[يس:١٢]، والآثار: ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس، فيذهبون بها في الآفاق، وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها، وفي الإسرائيليات أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة، ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر، فعليهم وظيفتان: إحداهما: ترك الذنب، والأخرى إخفاءه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا أتبعوا»[2].

الخطوة الحادية والعشرون: تذكر النعمة والشهود

تذكر أن الجوارح من النعم، فهل تذكرت ذلك الذي فقد سمعه أو بصره أو يده أو قدمه؟!

إن هؤلاء يتمنى أحدهم أن تعود له جوارحه للاستمتاع بها واستخدامها فيما يرضي الله تعالى، ولكننا وللأسف قد نكون ممن يبارزون الله بارتكاب الآثام بهذه الجوارح، فأين شكر النعم؟!

وتذكر شهادة هذه الجوارح التي تعصي بها عليك، تذكر أخي قبل أن تفعل أي معصية أن الجوارح التي سوف تعمل المعصية بها أنها ستشهد عليك وستفضحك ليس هنا بل في أرض المحشر كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[يس:٦٥]، وعن أنس بن مالك ﷺ قال: **"كنا عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فقال: هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قال: قُلْنَا الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: من مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يقول: يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي من الظُّلْمِ؟ قال: يقول: بَلَى، قال: فيقول: فأني لَا أُجِيزُ على نَفْسِي إلا شَاهِداً مِنِّي، قال: فيقول: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودا، قال: فَيُخْتَمُ على فيه، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قال: فيقول: بُعْداً لَكُنَّ**

---

[1] - أخرجه مسلم، ٧٠٤/٢ برقم: ١٠١٧.

[2] - إحياء علوم الدين، ٣٢/٤-٣٤.

وَسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كنت أُنَاضِلُ"[1]، وعن هريرة ﷺ قال: قالوا: "يا رَسُولَ اللَّهِ، هل نَرَى رَبَّنَا يوم الْقِيَامَةِ؟ قال: هل تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قالوا: لَا، قال: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ليس فِي سَحَابَةٍ، قالوا: لَا، قال: فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إلا كما تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قال: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فيقول: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لك الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بَلَى، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لَا، فيقول: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فيقول: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لك الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقول: بَلَى أَيْ رَبِّ، فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ، فيقول: لَا، فيقول: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فيقول له مِثْلَ ذلك، فيقول: يا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ ويثني بِخَيْرٍ ما اسْتَطَاعَ، فيقول: هاهنا إِذاً، قال: ثُمَّ يُقَالُ له الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ من ذَا الذي يَشْهَدُ عَلَيَّ! فَيُخْتَمُ على فيه، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: أنطقي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ؛ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ من نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الذي يَسْخَطُ الله عليه"[2].

الخطوة الثانية والعشرون: تذكر كتابة الملائكة لأعمالك

فالملائكة تكتب كل أعمالك وأقوالك كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٠-١٢]، قال ابن كثير: «يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح؛ فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم»[3]، وقال السعدي: «وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم»[4]، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨]، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ: "أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[5].

١- أخرجه مسلم، ٢٢٨٠/٤ برقم: **٢٩٦٩**.

٢- أخرجه مسلم، ٢٢٧٩/٤ برقم: ٢٩٦٨.

٣- تفسير ابن كثير، ٤٨٣/٤.

٤- تفسير السعدي، ص٩١٤.

٥- أخرجه الترمذي، ١١/٥ برقم: ٢٦١٦، وأحمد، ٢٣١/٥ برقم: ٢٢٠٦٩، قال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب، ٥٧/٣ برقم: ٢٨٦٦.

قال المباركفوري: «"إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ" أي محصوداها، شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل[1] وهو من بلاغة النبوة؛ فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام حسناً وقبيحاً، والمعنى لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم من الكفر والقذف والشتم والغيبة والنميمة والبهتان ونحوها»[2].

فإذا كان هذا حال اللسان ولا يأبه له الإنسان فكيف بما يقترفه القلب والجوارح والأركان!!

الخطوة الثالثة والعشرون: المراقبة

أي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه، ويعنى بهذه المراقبة مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه، وهي ثمرة العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً وخلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته، فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين[3].

عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة فعرسنا، فانحدر علينا راع من جبل، فقال له ابن عمر: أراع أنت؟ قال: نعم، قال: بعني شاة من الغنم، قال: إني مملوك، قال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال: فأين الله عز وجل، قال ابن عمر: فأين الله ثم بكى، واشتراه بعد فأعتقه[4].

وبينا عمر بن الخطاب ﷺ يتفقد بالمدينة إذ تعب فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت: يا أمتاه وما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم، قالت: وما كان من عزمته؟ قالت: إنه أمر منادياً فنادى لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا ابنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك في موضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية: والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء -وعمر يسمع كل ذلك- فقال: يا أسلم علم الباب واعرف الموضع، ثم مضى في تفقده فلما أصبح قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فإذا أيم لا بعل لها، وإذا تيك أمها، وإذا

---

[1]- ما يحصد به الزرع، المغرب في ترتيب المعرب، ٢/٢٩٠.

[2]- تحفة الأحوذي، ٧/٣٠٦.

[3]- إحياء علوم الدين، ٤/٣٩٨.

[4]- تاريخ الإسلام، ٥/٤٦٠.

ليس لهم رجل، فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية؟ فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً، وولدت الابنة ابنة، وولدت الابنة عمر بن عبد العزيز[1].

وليتذكر اسم الله الرقيب، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾[الأحزاب:٥٢]، فالله يراقبك، ويعلم بحالك، ويراقبك تحركاتك ونظراتك وسمعك وقلبك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الأحزاب:٥١].

إذا ما خلوْتَ الدّهرَ يوْماً فلا تَقُلْ خَلَوْتَ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
ولاَ تحْسَبَنَّ اللهَ يغفِلُ مَا مضَى ولا أنَ مَا يخفَى عَلَيْهِ يغيب
لهَوْنَا لَعَمرُ اللّهِ حتى تَتابَعَتْ ذُنوبٌ على آثارهِنّ ذُنُوبُ
فَيا لَيتَ أنّ اللّهَ يَغفِرُ ما مضَى ويأْذَنُ فِي تَوْباتِنَا فنتُوبُ[2]

واحذر من أن تكون ممن يراقبون المخلوق ويتركون الخالق، وهم الذين قال فيهم النبي ﷺ: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جبَالِ تِهَامَةَ بيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"[3].

الخطوة الرابعة والعشرون: الإرادة القوية

لابد أن تكون صاحب إرادة قوية لكي تقوى على ترك الذنوب والمعاصي والشهوات، قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أمه الفتوح»[4].

فمتى كان الإنسان صاحب عزيمة هان أمامه كل شيء، وفى هذا الكلام ما يشير، أولا: إلى أن الإنسان يؤتى من ناحية ما يتمنى، وإبليس وذريته يأتون من ناحية أمانيه، ويشير ثانيا: إلى أن الإرادة القوية هي العزم الصادق، وهى التي تمنع أو تقاوم وسوسة الشيطان، ويشير ثالثا: إلى أن فتنة الجنس أشد الفتن.

١- تاريخ مدينة دمشق، ٧٠/٢٥٣.

٢- ديوان أبي العتاهية، ص١٠.

٣- أخرجه ابن ماجه، ٢/١٤١٨ برقم: ٤٢٤٥، قال الألباني«صحيح»، صحيح سنن ابن ماجة، ٢/٤١٧ برقم: ٣٤٢٣.

٤- حلية الأولياء، ٣/٢٣٠.

الخطوة الخامسة والعشرون: شغل أوقات الفراغ واستغلالها

عليه أن يشغل أوقات الفراغ ويستغلها بما يعود نفعه على الفرد والمجتمع والأمة من تعلم للعلم ومطالعة للكتب والبرامج النافعة والقيام بأعمال نافعة أو مباحة، فإن الفراغ نعمة من نعم الله لا يدرك أهمية الحاجة إليه إلا من تكالبت عليه الأشغال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **"نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغ. "**[(١)].

قال ابن حجر: «قال ابن بطال: معنى الحديث: أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون، وأشار بقوله: **"كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ"** إلى أن الذي يوفق لذلك قليل، وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل:

يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا ... فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصِحَّةٍ ... يَنُوءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ

وقال الطيبي: ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقة في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ومجاهدة النفس وعدو الدين؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة»[(٢)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: **"اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"**[(٣)]، قال الحسن: «الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غداً فلعلك أن لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه»[(٤)].

١- أخرجه البخاري ٥/٢٣٥٧ برقم: ٦٠٤٩.

٢- فتح الباري ١١/٢٣٠.

٣- أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٤١ برقم: ٧٨٤٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٢٦٣ برقم: ١٠٢٤٨، صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣ / ١٦٨ برقم: ٣٣٥٥.

٤- الزهد الكبير ١/١٩٦.

قال ابن هبيرة الوزير الحنبلي:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع[١]

- **الوقت هو الحياة**

رأى جندي في مقهى رجلين يعلبان النرد، وكانت الساعة السابعة مساءً، فتقدم إليهما بكل أدب واحترام وحياهما، ثم سألهما:

من أي وقت بدأتما تلعبان؟

الرجلان: من الساعة الرابعة.

الجندي: وإلى متى؟

الرجلان: إلى الثامنة أو التاسعة.

الجندي: وما عملكما؟

الرجلان: مدرسان.

فانهال عليهما ضرباً ولكماً، وقال: أما لكما عمل تعملانه، أو رياضة تقومان بها، أو خدمة اجتماعية تؤديانها.

قال الأستاذ أحمد أمين معلقاً على القصة: «ليت لنا مشرفين من هذا القبيل يعزرون من أضاع وقته على هذا النمط، إذاً ما نجا من الضرب واللكم إلا القليل»[٢]

- **كيفية استغلال الوقت**

إن استغلال وإدارة الوقت له الكثير من المزايا إذ به تتحقق الأعمال الكثيرة في الأوقات القليلة، وأداء الحقوق والواجبات، والتغلب على الفشل، وعمارة الوقت وسد الفراغ، ويعين في ذلك ما يلي:

١- التخطيط اليومي: إذ لابد من تخطيط لأعمال اليوم من الصباح الباكر، وإن كان في الأمر مشقة في أوله لكنه سيصبح أمراً عادياً مع الاستمرار، يتم من خلال هذا التخطيط وضع أهداف اليوم، والأعمال التي تحتاج إلى إنجاز، وترتيب الأولويات، والأوقات على الأعمال، ووضع برنامج لأوقات الفراغ؛ لأن الفراغ فساد ومفسدة:

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده[٣]

٢- وضع جدول للأعمال اليومية ليتذكرها به، ويوزع من خلاله أوقات الأعمال، وترتب به الأعمال بحسب أولوياتها، ويستحسن وضعه في مفكرة للأعمال اليومية، وعدم المبالغة في تقدير

١- الآداب الشرعية ٢/٢٣٦.

٢- الرائد دروس في الدعوة والتربية ٤/٢٩٦، ٢٩٧ نقلاً عن الوقت هو الحياة ص١٧٨، نقلاً عن الهمة طريق القمة، ص ٤٣، ٤٤.

٣- محاضرات الأدباء ٢/٣٤٧.

الأوقات للأعمال، وشغل أوقات الفراغ، وعدم شغل الجدول بأعمال كثيرة يعجز عن القيام بها فيصاب بإحباط، وليكن فيه مرونة لمواجهة الظروف غير المتوقعة، والمبادرة إلى تنفيذه.

٣- المبادرة إلى تنفيذ الأعمال وعدم التأخير والحذر من التسويف، قال الحسن: «يا ابن آدم إياك والتسويف؛ فإنك بيومك ولست بغد، فإن يك غداً لك فكسر في غد كما كسرت في اليوم، وإن لا يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم»[١].

٤- ترك الخوض في فضول الأعمال واللغو والعبث لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ، تَرْكُهُ مَالا يَعْنِيهِ"**[٢].

٥- وضع مصحف صغير في الجيب لاستثمار أوقات الفراغ في قراءة القرآن ومراجعته.

٦- اصطحاب بعض الكتيبات النافعة لاستثمار أوقات الفراغ في قراءتها.

٧- الالتزام ببرنامج للقراءة اليومية خلال أوقات الفراغ.

٨- عمل استبيان يسجل فيه الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي وإضاعة الأوقات والعمل على معالجتها بجدية وحزم.

٩- اعتماد مبدأ (ماذا استفدنا من مجلسنا هذا) في كل مجلس يجلس فيه.

١٠- ترك مجالس اللغو والمعاصي والحذر الشديد منها.

١١- الحذر من أهل البطالة الذين لا هم لهم إلا إضاعة الأوقات، فلا أعدم لقيمة الزمن من مصاحبة أهل البطالة والعطالة، الذين يلجون في الجهالة واللهو والعبث، فهم من أضيع الناس للزمن، وأكثرهم تعطيلاً للعقل، وأسوأ الناس لصاحب وأهدرهم لطاقة[٣].

١- قصر الأمل ١/١٤٤.

٢- أخرجه الترمذي ٤/٥٥٨ برقم: ٢٣١٧، وابن ماجه ٢/١٣١٥برقم: ٣٩٧٦، صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/٣٦٠ برقم: ٣٢١١.

٣- الرائد دروس في التربية والدعوة ٤/ ٢٩٧- ٢١٣.

المطلب الثاني: برنامج عملي للتخلص من المعاصي

- اصدق مع الله، واعلم بأن من صدق مع الله في ترك الذنوب فسوف يشرح الله صدره، ويفتح له أبواب التوبة، وييسر له أسباب ذلك، ويعينه ويهديه.
- اطلب العلم بحضور المحاضرة والدرس والندوة والموعظة، أو بسماعها بالأشرطة والإذاعات والقنوات ونحوها، أو القراءة، أو مجالسة أهل العلم؛ لأن العلم ينير لك الطريق فتعرف به الخير من الشر، وطرق ووسائل تحصيل الخير والتخلص من الشر.
- قم بالاستغناء عن الكماليات أو الاستغناء عن الإكثار منها؛ لأن الإسراف والتبذير والترف طريق الشيطان ودافع للوقوع في المعاصي.
- اجلس مع نفسك منفرداً في حجرتك أو في مسجد من المساجد، أو في مكان فيه خضرة وهواء طلق وهدوء بعيداً عن مشاغل العمل والبيت، واصطحب معك قلماً وورقا.
- سطر بيديك ذنوبك، وقسمها إلى كبائر وصغائر، وأحصها جيداً؛ لتعرف كم الذنوب التي تقترفها.
- انشغل أولاً بالكبائر، عدها جيداً، وضع خطة للتخلص منها، وانظر أخطرها وأعظمها أثراً وابدأ به إن تعذر التخلص منها دفعها واحدة.
- انظر إلى السبب الذي يدفعك إلى فعل الذنب، فقد يكون الفراغ، أو شهوة النفس، أو أصدقاء السوء، أو غير ذلك، فمعرفة الدافع للفعل تساعد كثيراً على التخلص منه، أو استثماره بشكل أفضل.
- تعقل ما الذي تستفيده من وقوعك في الذنب؟
- انظر وسيلة مباحة تحقق بها ما تظن أنه فائدة، أو اتركه في الله، فكل ما حرم الله فيه ضرر للإنسان.
- تفكر في الفوائد المترتبة على ترك الذنوب كانشراح الصدر وسلامة الروح وصفاء النفس ومحبة الله والفوز بالجنة وغير ذلك.
- ادع الله كل يوم أن يتوب عليك.
- ابتعد عن كل ما يعوقك عن التوبة.
- كافئ نفسك عن كل تقدم في التوبة إلى الله.
- أوجد البديل، فمثلاً: سماع الأناشيد الإسلامية النافعة والمؤثرة بدلاً من سماع الأغاني والموسيقى، وسماع الدروس والبرامج العلمية النافعة بدلاً من سماع برامج اللهو التي لا تجدي ومشاهدة

المسلسلات، واستبدال الرفقة السيئة بالصالحة، واستبدال أماكن المعصية والسوء بأماكن الطاعة والخير، واستبدال القنوات الماجنة بالقنوات الخيرية والأخبارية النافعة المنضبطة بضابط الشرع.

- اجعل والديك يدعوان لك؛ لأن دعاء الوالدين مستجاب.
- استشعر نداء الله لك بالتوبة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].استشعر فرحة الله تعالى بتوبتك، ألا يستحق خالقك أن تفرحه بالعودة إليه.
- أكثر من الصدقة، وقم بمعاقبة النفس على المعاصي بعقوبات مالية، فإذا وقعت في معصية أخرج مبلغاً من المال وتصدق به لجهة خيرية كفارة لذنبك، وهكذا كلما وقعت في ذنب؛ لأن النفوس مجبولة على الشح بالمال والحب له، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[الفجر:٢٠] وإذا أدبت نفسك على المعاصي بفقد ما تحب لعل ذلك يكون رادعاً لها[1].

---

[1]- أربعين طريقة تعينك بإذن الله على ترك المعاصي، نقلاً عن موقع:http://www.acn3.com، وموقع: http://forums.fatakat.com

المطلب الثالث: وقفات مع التغيير

أولاً: محطات في رحلة التغيير

المحطة الأولى: النفس هي محطة التغيير الأولى، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١]، قال السعدي: «﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله إياها عند ذلك، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة»[١]، وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا، والمعنى أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح»[٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الأنفال:٥٣]

المحطة الثانية: حفز نفسك دائماً، وأيقظها من الغفلة والخمول، وداعب فيها نقاط القوة والطموح، أخبرها أن التغيير هو خطوة هامة في طريق النجاح والسلام الداخلي، وذكرها بأن التقدم مستحيل بغير تغيير، والذين لا يستطيعون تغيير عقولهم قد لا يستطيعون تغيير شيء.

المحطة الثالثة: اعرف نقاط قوتك وأماكن ضعفك؛ لأن المرء الذي يعرف نفسه جيداً هو أقدر الناس على طرق باب النجاح، حدد ما هي قدراتك، وركز على الأشياء التي تحتاج إلى تنمية وتغيير.

المحطة الرابعة: ليس الأمر أن بعض الناس يمتلكون الإرادة وآخرون لا يمتلكونها.. بل إن البعض مستعدون للتغيير والبعض لا، فيجب أن تكون لديك رغبة قوية وشديدة وقناعة راسخة بالتغيير، يجب أن تتمتع بقناعة في النفس تدفعك للتغيير من حالك في مقابل عجزك وخوفك من الفشل.

المحطة الخامسة: أنت أكرم خلق الله، والمخلوق الوحيد القادر على تحقيق أهدافه في هذه الحياة، الوحيد الذي وهبك الله تعالى القدرة على الارتقاء وتحسين مستواك سواء الروحاني أو الاجتماعي أو المادي أو الفكري، فالعاقل يستعمل هذه النعمة الإلهية في تغيير نفسه إلى الأفضل والأحسن وترتقي إلى مراتب المتميزين[٣].

١- تفسير السعدي، ص٤١٤.

٢- أضواء البيان، ٢/٢٣٦.

٣- سيطر على حياتك،د إبراهيم الفقيه، ص ٨٥، ٨٦.

المحطة السادسة: التعلم، فهناك أشياء كثيرة جداً نود تغييرها ويقف الجهل حائلاً دون تحقيق هذا التغيير، والحل الأمثل لهذه المشكلة هو بذل المزيد من الجهد من أجل التعلم وتثقيف النفس.

بل في كثير من الأحيان يكون للمعلومات التي لديك عن شيء ما بالغ الأثر في التعامل مع هذا الشيء، فمثلاً إذا قرأت عن أضرار وأخطار التدخين فإن ذلك يعد حافزاً ومشجعاً كي تقلع عن التدخين، كذلك قرأت عن فضل الصلاة أو عقوبة المهمل لأداء العبادة مما أنتج بالغ الأثر في لفت نظرك على أهمية الصلاة، أضف إلى أن القراءة والتعلم تتيحان لك معرفة النماذج التي تود الوصول إليها فيمكنك مضاهاتها والتأسي بها.

المحطة السابعة: **خطوات ومراحل التغيير**

١- الملاحظة: فتش في نفسك، راقب شريط حياتك، ألق نظره على ذاتك، لا حظ سلوكك وأفعالك إلى أن تقع على السلوك السيئ الذي تريد تغييره، لأنك بالملاحظة والتفتيش في نفسك ستجد أن هناك أشياء غير مرضية عند الله، أو تسبب لك مشكلات دائمة، ضع دائرة حول الفعل والسلوك السيئ، ثم انتقل للخطوة والمرحلة القادمة وهي.

٢- اتخاذ القرار: اتخذ قرار تغيير السلوك السيئ والمعصية ولا تتردد؛ لأن المسألة لا تحتاج إلى تردد، بل إلى مضاء وتصميم وعزم أكيد؛ فإن الشجاعة والبسالة والقيادة في اتخاذ القرار، وإن التردد فساد في الرأي، وبرود في الهمة، وخور في التصميم، وشتات للجهد، وإخفاق في السير، وهذا التردد مرض لا دواء له إلا العزم والجزم، فإذا لاحظت خللاً ما في حياتك وقر في وجدانك أنه خلل، وأنه يسبب لك مشكلات، فالحل الأمثل والتلقائي والطبيعي أن تبادر وبلا إبطاء إلى اتخاذ قرار حالي وآني بتعديل هذا الخلل، ثم انتقل للخطوة والمرحلة القادمة وهي.

٣- المبادرة إلى التنفيذ، فمثلاً أنا لا أزور والدي ووالدتي الحل أن أذهب لزيارتهم حالاً، أدخن الحل أن أهشم علبة السجائر التي تنام في جيبي حالاً، أخاصم أخي أو صديقي أرفع سماعة الهاتف وأستسمحه، أشاهد قنوات ماجنة أبادر إلى حذفها، وهكذا إذا لاحظت خللاً ما في حياتك وقررت تغييره، فالحل بعد اتخاذ القرار أن تبادر وبلا إبطاء إلى التنفيذ.

٤- الصبر والإصرار: يقول الكسيس كاريل: لا يستطيع الرجل تغيير نفسه بغير ألم... فهو نفسه الرخام وهو نفسه النحات، والعادة التي غيرتها ستعلن عنها نفسك في وقت وآخر، في اختبار عملي على مدى صدقك في عملية التغيير، ستجد نفسك تطالبك بسيجارة، أو أن تهمل صلاتك، أو أن تشاهد قناة ماجنة، فترك العادة السابقة يحتاج إلى صبر وإصرار من أجل ترسيخها وتعويد النفس عليها.

٥- الاستمرارية والثبات والمواظبة على فعل السلوك الحسن أمر بالغ الأهمية في أي مرحلة من المراحل السابقة، فالمواظبة والاستمرارية والثبات مكون أصيل لا يتجزأ منه، فاحذر أن تناديك نفسك بالتوقف وإهمال الاستمرارية في هدفك وتغييرك[1].

ثانياً: دور المجتمع المسلم في التغيير

إن على العالم الإسلامي أن يقوم بكافة فئاته وطوائفه على العمل من أجل نشر الفضائل والحد من انتشار الرذائل، وعلى وجه الخصوص تلك الفئات التي تتعامل بطريقة مباشرة في مجال بناء الإنسان، كالمعلمين والمربين الذين يشكلون القدوة لأبنائنا في المدارس عبر مساحات العالم الإسلامي، ولهم تأثير واسع وكبير في بناء شخصيات هؤلاء الأبناء، وكالإعلاميين والذين لهم دور بارز وخطير في التعليم والتربية، وفي مجال التأثير المباشر وغير المباشر عبر وسائل الاتصال الحديثة والمتنوعة، والتي جعلت من العالم كله قرية صغيرة، والدعاة أصحاب التأثير الخطير في مجال الاتصال بالجماهير، والذين يعتبرهم الناس أهل علم الإسلام، والقدوة الاجتماعية، ويزداد هذا العمل أهمية بالنسبة لهم فيما يواجه المجتمع الإسلامي من تحديات، وليعلم الدعاة أن لهم دورا كبيرا في تقليل الذنوب بسبب ما يقومون به من أنشطة دعوية، فكم من داعية كان سبباً في منع معصية أو تخفيفها، وكم من برنامج دعوي كان سبباً في هداية الشباب والفتيات، ودور أولياء الأمور خاصة في العصر الذي نعيشه الذي يتسم بسرعة التغيير وسرعة الاتصال، وما يشوب وسائل الاتصال والتربية من شوائب تتطلب من أولياء الأمور وعيا راشداً، في تقليل المعاصي في البيت وذلك بتطهير البيت من وجود أجهزة ووسائل الفساد، والحرص على تربية الأبناء التربية الصحيحة، وتقوية الروابط والعلاقات بهم، فعلاقة المحبة والمودة والتفاهم بين الآباء والأبناء لها دور كبير في تقليل الذنوب.

فعلى المجتمعات القيام بدورها وذلك بتربية الأجيال تربية تتكامل فيها جميع جوانب الشخصية المسلمة العقدية والفكرية والسلوكية، وذلك يتضمن:

١- إعداد الأفراد في محاضن تربوية ذات منهج يكفل تأسيس جوانب الشخصية المسلمة.

٢- اكتشاف مهارات الأفراد وتنميتها، والتعرف على مواهبهم واستثمارها، وغرس حب القيم الأخلاقية والتربوية للشريعة الإسلامية في نفوسهم؛ ليتم شغل الأوقات الفارغة، واستثمار الأوقات بما يعود بالنفع لهم ولمجتمعاتهم وأمتهم؛ لأن الفراغ سبب من أسباب الوقوع في الفساد.

٣- ترسيخ مبدأ الطاعة والتعاون على القيام به.

١- انظر: سيطر على حياتك، د إبراهيم الفقيه، ص ٨٢-٨٥، ولا تحزن للقرني٣/٩٧، ٩٨.

٤- معالجة الآفات السلوكية، وتزكية النفوس وتنقيتها من الأمراض التي تسبب الوقوع في المعاصي.

٥- ترسيخ مبدأ البغض للمعصية والحذر منها أو التعلق بها أو بأهلها وحبهم.

٦- العناية بانتقاء الرفقة الصالحة.

٧- إحياء وترسيخ مبدأ الرقابة عند المربين والجهات المربية.

٨- بناء المجتمع المسلم الذي يعيش للإسلام، ويحمل هم العمل به وتطبيقه، مجتمع يسود فيه مبادئ الإسلام، ويتعامل بأخلاقه وقيمه، ويحتكم إلى شريعته.

٩- نشر الطاعة بين الأفراد وممارستها تأسيساً للفضائل ودعمها، واجتناباً للرذائل ومحاربتها، فإن ذلك من أهم وأكبر أسباب النجاح في إقامة مجتمع فاضل، وذلك يتطلب إقامة المؤسسات الدعوية الحكومية وغير الحكومية.

١٠- مناصحة ولاة الأمور والتعاون معهم على البر والتقوى وتكثير سبل الخير في المجتمع.

١١- توجيه الإعلام لخدمة الأمة، ومناصرة قضاياها، والتعريف بعقدها وقيمها ومبادئها وأخلاقها.

١٢- التشجيع على إقامة الأسرة المسلمة بتسهيل الزواج وعدم التكلف فيه.

- **ظن خائب**

وقد يظن الطائع أنه بمنأى عن الاختبار أو الابتلاء الذي يتعرض له غيره من العصاة، وهذا اعتقاد خاطئ؛ لأن الإنسان كما أخبرنا رسول الله ﷺ قد يعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون ما بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[1]، وهنا أيضا نجد مجموعة من الخطوات لابد أن يتحلى بها الطائعون من أهمها:

الخطوة الأولى: أن يعلم يقيناً أن الطاعة هي من توفيق الله عز وجل وبمشيئته، ولو شاء سلبها منه، وعليه أن يردد دائما قول الله: ﴿**وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ**﴾[الأعراف: ٤٣].

الخطوة الثانية: أن يتحلى بالخوف من الله عز وجل وأن يرجو قبول طاعاته، فقد كان السلف رضوان الله عليهم قد عملوا بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، فإن المؤمن يجمع إيمانا وخشية، والمنافق يجمع إساءة وأمنا.

١- أخرجه البخاري ٦/ ٢٤٣٣ برقم: ١٢٢٦، ومسلم ٤/ ٢٠٣٦ برقم: ٢٦٤٣.

الخطوة الثالثة: ألا يأمن الطائع مكر الله تعالى، فينقلب بهذا الأمن من العصاة وهو لا يدري، وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بـــ: "يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ "[1].

الخطوة الرابعة: ألا يمن بطاعته على الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

الخطوة الخامسة: أن يحذر الوقوع في البدعة فيعبد الله بغير ما أمر أن يعبد به.

الخطوة السادسة: أن يبتعد عن الغلو في أمر الدين؛ لقوله ﷺ: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ"[2]، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع، قوله: "فَسَدِّدُوا" أي: الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، وقوله: "وَقَارِبُوا" أي: أن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، وقوله: "وَأَبْشِرُوا": أي: بالثواب على العمل الدائم وأن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره وأبهم المبشر به تعظيماً له وتفخيماً، وقوله: "وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ" أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة، والغدوة بالفتح سير أول النهار، وقيل: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، "وَالرَّوْحَةِ" بالفتح السير بعد الزوال، "الدُّلْجَةِ" بضم أوله وفتحه وإسكان اللام سير آخر الليل، وقيل سير الليل كله[3].

الخطوة السابعة: أن يعلم أن هناك عدوا هو الشيطان يتربص به الدوائر ويريد الإيقاع به، وأنه قد يدخل عليه من باب الطاعة فيجعله مغتراً بها، متكبراً على غيره من العصاة، جاعلاً نفسه في مكانه فوقهم[4].

وفي الختام أسأل من الله جل في علاه أن يوفقنا للتوبة الصادقة النصوح، والعود الصادقة إلى التمسك بتعاليم هذا الدين الحنيف، والعظ عليها بالنواجذ، والمبادرة إلى الطاعات، والمحافظة على القيم الأخلاقية، وغرسها في قلوب الجيل والنشء، وتربيتهم عليها، وغرسها في قلوبهم ونفوسهم، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي، وكل ما يؤدي إليها ويوقع فيها، والحذر منها، وتربية الجيل والنشء على مجانبتها وأسبابها والداعين إليها والواقعين فيها، والمسارعة إلى عقد الصلح مع الله تعالى لا

١- أخرجه الترمذي ٤/ ٤٤٨ برقم: ٢١٤٠، وأحمد ٣/ ١١٢ برقم: ١٢١٢٨، صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٧١ برقم: ٢٧٩٢.

٢- أخرجه البخاري ١/ ٢٣ برقم: ٣٩.

٣- فتح الباري ١/٩٤، ٩٥.

٤- انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ١/ ٤٥-٤٩.

بمحاربة دينه وشريعة نبيه ﷺ، وعقد الصلح مع الخلق برد الحقوق إلى أهلها، والله المستعان وعليه التكلان، والحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الانتهاء منه مساء السبت ٩/ربيع أول/١٤٣٢هـ/ الموافق له ١٢/فبراير/٢٠١١م

اليوم التالي لتفريج الله ﷻ عن أهل الكنانة والأمة الإسلامية والعربية برحيل طاغية مصر الذي جثم عليها ثلاثين عاماً، جعل الله ذلك خيراً لأرض الكنانة وأهلها، ولفلسطين وأهلها، خصوصاً أرض الرباط والثبات والجهاد غزة الأبية.

الفهرس